## الفقه المقارن واثره في اثراء الساحة الفكرية

يطلق الفقه المقارن ويراد منه أحد معنيين:

**أحدهما:** جمع الآراء المختلفة في المسائل الفقهية على صعيد واحد دون أجراء موازنة بينهما، وهذا لا يسمى مقارن لان طبيعة المقارنة تقتضي الترجيح وبيان الرأي الاقرب الى الواقع.

**والأخر:** جمع الآراء الفقهية المختلفة وتقيمها والموازنة بينها بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض، وهذا الوجه ينطبق كثيرا على مفهوم المقارنة لما فيه من ترجيح .

فلذا نجد ان اكثر العلماء أختار المعنى الثاني حتى تظهر ثمرة المقارن .

**الفرق بين الفقه المقارن والفقه الخلافي وما جهة الالتقاء:**

جهة الالتقاء بينهما هي عرض آراء الفقهاء والموازنة بينهما.

ويفترقان في قربهما من الموضوعية في البحث وبعدهما عنها . إذ يعمل الخلافي على آراء مسبقة يراد له تقريرها وتعزيزها وهدم ما عداها، فوظيفته وظيفة جدلي لا يهمهُ الواقع بقدر ما يهمه انتصاره في مقام المجادلة والخصومة، فوظيفة كمحام يضع نفسه طرفاً في الدعوى للدفاع عمن يتوكل عنه ولا يهمه بعد ذلك أن يكون موكله قريباً من الواقع أو بعيداً عنه.

أما عمل المقارن فوظيفته وظيفة الحاكم يعد نفسه مسولاً عن فحص جميع الوثائق وتقييمها، والتماس أقربها للواقع تمهيداً لإصدار حكمه، ولا يهمه أن يتلقي ما ينتهي إليه مع ما لديه من مسبقات فقهيه، وربما عمد إلى تصحيح آراءه السابقة على ضوء ما ينتهي إليه .

موضوع الفقه المقارن:

يراد بالموضوع هنا ما يبحث في العلم عن عوارضه على اختلافها من ذاتية وغريبة . فموضوع الفقه المقارن – وهو الذي يجمع مسائله– هو: آراء المجتهدين في المسائل الفقهية من حيث تقييمها والموازنة بينهما وترجيح بعضها على بعض .

## فوائد الفقه المقارن:

ذكر السيد محمد تقي الحكيم في كتابه الأصول العامة للفقه المقارن أبرز الفوائد ونحن قمنا بذكرها وهي:

أ. محاولة البلوغ إلى واقع الفقه الإسلامي من أيسر طرقه وأسلمها، وهي لا تتضح عادة إلا بعد عرض مختلف وجهات النظر فيها وتقييمها على أساس موضوعي.

ب. العمل على تطوير الدراسات الفقهية والأصولية والاستفادة من نتائج التلاقح الفكري في أوسع نطاق لتحقيق هذا الهدف.

ج. ثمارهُ في إشاعة الروح الرياضية بين الباحثين ومحاولة القضاء على مختلف النزعات العاطفية وإبعادها عن مجالات البحث العلمي .

د. تقريب شقة الخلاف بين المسلمين والحد من تأثير العوامل المفرقة التي كان من أهمها وأقواها جهل علماء بعض المذاهب الإسلامية بأسس و ركائز البعض الآخر . ما ترك المجال مفتوحا أمام تسرب الدعوات المغرضة في تشويه مفاهيم بعضهم والتقول عليهم بما لا يؤمنون به .

## ثالثاً: علم الكلام.

يرتبط علم الكلام بالفكر الإسلامي ارتباطاً وثيقاً؛ لأنه أول علم ظهر في الإسلام لمواجهة الشبهات التي دخلت في المجتمع الإسلامي من أهل الأديان والنحل الأخرى، ومثل علم الكلام الثقافة الإسلامية ودافع عن الدين وأثبت بالحجج العقلية العقيدة الإسلامية للمجتمعات التي لم تكن تعرف شيئاً عن الإسلام ومصادر الوحي وأولويات الدين التي جاء بها القرآن الكريم والرسول ﷺ، فهؤلاء لم يكونوا يعرفون الخطاب القرآني ولا الإسلامي وإنما كانوا يعترفون بالعقل والمنطق العقلي الفلسفي فتفرغ مجموعة من علماء الإسلام للرد على شبهات هؤلاء، والإجابة على تساؤلاتهم.

ويعرف علم الكلام التعريفات التي ساقها العلماء للتعريف بأصول الدين ويتداخل علم الكلام مع علم الفلسفة؛ لأنه عمل عقلي نظري ومساحته تغطي مساحة مسائل الفلسفة لذلك يعرفه

أبو نصر الفارابي: صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل، وهذا ينقسم إلى جزئين جزء في الآراء وجزء في الأفعال)[1]..

---

(1) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، د. مصطفى عبد الرازق: ص ٢٦٥.

والآزاء ما يمتحن بها العقل والأفعال ما يعمل به الإنسان بعد الاعتقاد والإيمان.

ويعرفه العلامة السمرقندي في الصحائف: لما كان علم الكلام نفسه يبحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه، وعن أصول الممكنات والأنبياء والأولياء والأئمة والمطيعين والعاصين وغيرهم في الدنيا والآخرة، ويمتاز عن العلم الإلهي المشارك له في هذه الأبحاث فحدّه: إنه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام)[1].

وقد واجه علم الكلام انتقادات شديدة من لدن علماء الشريعة والمشتغلين بالعلوم الشرعية بسبب طريقته في إثبات العقائد واهتماسه بالعقل والدليل العقلي، ولكن عند التحقيق نجد أن هذا العلم قدم خدمه لمقاصد الدين وأصوله في وجه موجة من التشكيك والشبهات التي أثارها المشككون ومن فتن بهم، وكذلك كانت حجة المعارضين له بأنه علم حادث وبدعة لم يقررها الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا أئمة الدين، وللحقيقة ان الجيل الأول مع الرسول الكريم ﷺ لصفاء عقيدتهم وبوجود النبي ﷺ وهيمنة القرآن الكريم على حياتهم وتمكنهم من السؤال المباشر للنبي ﷺ لم يكونوا بحاجة إلى الخوض في مثل هذا الميدان، وما نقل عن بعض العلماء في الطعن في علم الكلام ومنعه فإنما ينصرف إلى من استعمل هذا الكلام في

---

(1) الإمام الغزالي وعلم الكلام، سعيد عبد اللطيف فوده: ص١٦.

الجدل والتشويش، ووظف العقل لمعارضة الدين والعقائد المقررة أما من استخدم هذا العلم للدفاع عن الدين فقد كان يقدم خدمة جليلة لنصرة الدين والعقيدة لذلك يقول عنه العلامة السمرقندي: إن أشرف العلوم وأعلاها منزلة هو العلم الإلهي الباحث بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة عن أحوال الألوهية وأسرار الربوبية التي هي المطالب العليا والمقاصد القصوى من العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية، إذ بها يتوصل إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وتصور صنعه ومصنوعاته.

وقد أكثر العلماء من وصف جليل هذا العلم الشريف حتى جعلوه في أعلى مرتبة من العلوم الإسلامية، وعلم الكلام استقر تعريفه على انه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد)[1].

وقد صرح الغزالي بأن علم الكلام هو أساس العلوم الإسلامية ورئيسها وذلك لشرف مباحثه المرتبطة بالاعتقاد بالألوهية والنبوة والامامة والمعاد.

وعلم الكلام لم يظهر بشكله النهائي فجأة وإنما استغرق ظهوره بحسب المصطلح مدة من الزمن تبلورت فيها المفاهيم واستقرت عندها المصطلحات، فهو كأي علم آخر أخذ مداه الزمني للظهور كما في اللغة

---

[1] ينظر: موقف الإمام الغزالي من علم الكلام، م. س: ص١٨ وما بعدها.

والعلوم الأخرى، وإن إعطاء اسم أو مصطلح لجملة من المعارف يأتي دائماً في مرحلة لاحقة، وينقسم علم الكلام على قسمين:

١. علم جليل الكلام: وهو العلم الذي يبحث في صفات الباري عز وجل وأفعاله وقدرته وعلمه وإرادته إلى جانب البحث في البعث والمعاد والنشور، وأفعال الإنسان والقضاء والقدر، والذي دعا العلماء إلى الخوض في هذه المسائل ما حصل من تصورات مستجدة بعد ظهور مشكلات الحكم الأموي وظهور مفاهيم كالإرجاء والجبر والقول بالإرجاء هو لمواجهة الخوارج الذين يقولون بالتكفير، والإرجاء يعني لا يكفر مرتكب المعاصي ويرجى النظر فيه إلى الله، وكان الإرجاء أحد الأسباب المهمة لظهور المعتزلة الذين واجهوا الإرجاء فكرياً لما كان الخوارج يمارسون العنف لمواجهة مخالفيهم وتبلورت في جليل الكلام آراء المذاهب والفرق الإسلامية، وتفرعت الأفكار وظهر الخلاف واضحاً في مسائله.

٢. دقيق الكلام: وهو العلم الذي تبلور ونضج لمواجهة أهل الملل والأديان الأخرى كالمانوية والسمنية والنصارى في عملية فكرية عقلية مستندة على النصوص الدينية فظهرت مباحث دقيق الكلام مثل المادة وصفاتها المتمثلة بمباحث الوجود وتحولات هذه المادة وتفاعلاتها

والحركة والسكون والمكان والزمان والوجود والعدم وغير ذلك من الصفات الطبيعية والظاهرية)[1].

وإن بداية علم الكلام والفلسفة وانطلاقهما يمكن أن نرجعه إلى ظهور الخلاف، كما يذكر ذلك الشهرستاني وتم تحديد هذا المفصل في الفكر الإسلامي في عهد أمير المؤمنين علي (عليه السلام).

ويقول الشهرستاني: انقسمت الاختلافات بعد ذلك إلى قسمين:

أحدهما: الاختلاف في الامامة وهو أعظم خلاف بين الأمة.

والثاني: الاختلاف في الأصول وحدث هذا الاختلاف في آخر أيام الصحابة ويربطه الشهرستاني بظهور القول بالقدر، ثم حدث بعدها ظهور الترجمة وظهور الفلسفة التي خلطت مناهجها بمناهج الكلام..

لقد ظهر الكلام إذن مع ظهور الخلاف ونضجت المقالات فارتفع إلى مستوى العلم، أي أصبح قابلاً للتصنيف والتبويب والعرض المنظم.. والحق إن علم الكلام صار علماً أوفنا باصطلاح القدماء مع المعتزلة فهم أرباب الكلام وأصحاب الجدل، والنظر والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل.. وتاريخ علم الكلام منظوراً إليه من زاوية تطور بنائه الداخلي هو في الحقيقة والواقع تطور التفكير النظري في الإسلام، وكان الفقه الذي كان

---

[1] دقيق الكلام، د. محمد باسل الطائي: ص٢٩. ٣٠.

مجاله هو العملي في مقابل علم الكلام النظري، تاريخ علم الكلام إذن هو تاريخ النظر في العقيدة)[1].

وبناء على تطور الفكر عن طريق النظر في الأدلة النقلية وعن طريق دخول الفلسفة والترجمة فإن جليل الكلام ودقيق الكلام مثل فكراً إسلامياً أصيلاً استناداً على قاعدة رصينة من دلالات النصوص وحركة النظر فيها، وإذا كان جليل الكلام عن عبر عن خلاف بمسار محفوف بالمخاطر والمجازفة بسبب مجاله المرتبط بالصفات والذات والمسائل الأصولية الكبيرة إلا إن دقيق الكلام عبر عن ثورة عقلية لدى علماء الإسلام بمذاهبهم كافة وتوحد الخطاب الكلامي في إثبات صفات الخالق عن طريق مخلوقاته، وإثبات واجب الوجود عن طريق ممكن الوجود الحادث وهو الوجود الحادث.

### رابعاً: الفلسفة.

تعد الفلسفة من أثرى فروع الفكر؛ لأنها تدرب على التفكير والنظر العميق، ودخلت الفلسفة في الفكر الإسلامي وحركة العقل أو النظر في النقل أو النصوص، والنظر في الوجود بعد الترجمة عندما قام بعض العلماء الذين على دراية باللغة اليونانية القديمة من أهل الديانة المسيحية هؤلاء

---

(١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائدية الملة، ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، مقدمة محمد عابد الجابري عن المقدمة: ص١٣. ١٦.

قاموا بنقل علوم الأوائل أو الفلسفة، وعلوم الأوائل أطلق على كل العلوم القديمة السابقة للإسلام فنقلوا علوم الفلسفة إلى اللغة العربية، وعندما نقلت الفلسفة إلى العربية واجهت رفضاً من قبل علماء الشريعة؛ لأنها كانت غريبة عليهم لذلك صدرت فتاوى بتحريم النظر في كتب الأوائل، وعند التحقيق نجد أن عوامل عديدة كانت وراء مواجهة الفلسفة ورفضها منها فكرية ومنها سياسية، وتذكر المصادر ان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة (٨٥هـ) كان أول من اشتغل في كتب الأوائل أو العلوم القديمة خاصة الكيمياء والطب والتنجيم، وجاء بالكتب من الإسكندرية إلى دمشق، وكان هدف الأمير الأموي الحصول عن طريق الكيمياء على المال عن طريق تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، ويبدو أن وراء هذا الهدف الحصول على المال لاستعادة حقه في الخلافة الذي حرمته منه عائلة عبد الملك بن مروان، واشتغل جابر بن حيان الكوفي في هذا العمل أيضاً، وكان هناك سبب فكري أيديولوجي وراء رفض الفقهاء لتحريمهم النظر في كتب الأوائل وهو توظيف جماعات من الغلاة علوم التنجيم والفلسفة لنصرة مذاهبهم الباطنية

وفرقهم الأمر الذي دفع باتجاه تحريم النظر في هذه الكتب[1].

---

(١) ينظر: فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من القتال، الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد، مقدمة محمد عابد الجابري: ص١٢.

وبعد الاطلاع على الفلسفة والمنطق اليونانيين تبلورت اتجاهات فلسفية إسلامية على يد المعتزلة الذين برعوا في توظيف الفلسفة العقلية للانتصار لمبادئهم.

## تعريف الفلسفة:

للفلسفة تعريفات عدة بحسب التصور والوظيفة والغاية من دراستها، فيعرفها افلاطون: (بأن الفلسفة حب الحكمة.. والحب شرط جوهري للتفلسف، والفيلسوف هو المحب الصادق الذي يعشق الجمال بالذات المطابق للخير بالذات.

وتطور التعريف بحسب التطورات الفكرية والثقافية للعلوم والمجتمعات، ففي مراحل نزول الأديان تغيرت النظرة إلى الفلسفة فحاول الفلاسفة الجمع بين الدين (النقل) والعقل والفلسفة وتحقيق المعنى على أن حقائق الوجي ليست إلا تعبيراً عن العقل ولا تعارض بين العقل (الحكمة) والدين (الشريعة)، ولذلك كتب ابن رشد فيلسوف المغرب الإسلامي كتابه (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ليثبت بأن الدين والعقل متفقان.

ويعرف الفارابي الفيلسوف المسلم بأن الفلسفة: هي العلم (بالموجودات بما هي موجودة)، ويعتبر ان غاية الفلسفة هي المعرفة أو

معرفة الحقائق، وهي كما معلوم احدى غايات الدين في إعطاء المعارف للإنسان.

ويعرفها ابن سينا بأنها: استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية[1].

ومن متابعة تطور التعريف بالإمكان معرفة إن جوهر الفلسفة هو التفكر في المسائل المهمة والوصول إلى تصورات وتصديقات حاسمة ودقيقة بشأنها، وعند ذلك بعد تحقق المعرفة تتحقق السعادة في حركة الفكر وممارسة التفلسف، وتحقيق السعادة، وعلى هذا الأساس تطور التعريف حتى العصر الحديث، إذ يعرف فرنسيس بيكون العالم الإنكليزي والفيلسوف: بأن الفلسفة تقدم لنا تفسيراً ومعنى للكون عن طريق الملاحظة والتجربة وتكمن غايتها في السيطرة على قوى الطبيعة والتحكم في مواردها بغية تحقق سعادة الإنسان، وهي عند ديكارت

العلم بالمبادىء الأولى، أو العلم الكلي الشامل لتحقيق سعادة الإنسان)[2].

وعند التحقيق نجد أن الفكر الإسلامي قام على ثلاث دعائم:

---

(1) ينظر: مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها، د حربي عباس ود. موزة محمد: ص٢٠. ٢٤.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص٢٠. ٢٤.

١. أصول الدين أو علم الكلام وهو الفضاء المعرفي والتطبيق العملي للفلسفة الإسلامية، ويرتبط بالمعارف الإسلامية وعلى الخصوص أكثر ارتباطاً بعلم أصول الفقه.

٢. الفلسفة والمنطق أو النظر العقلي في الأدلة والاستدلال على العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية والمزج مع الفلسفة اليونانية وعلوم الأوائل.

٣. التصوف أو علم الأخلاق، وهو علم نشأ في المجتمع الإسلامي واستند إلى تعاليم الإسلام لكنه فيما بعد تأثر بالنظريات العرفانية والنزعة الروحانية لدى أهل الملل والديانات الأخرى.

## أصالة الفلسفة الإسلامية:

أحدثت الفلسفة الإسلامية ردود أفعال عديدة حول أصالتها أو أنها استنساخ للفلسفة اليونانية:

فذهب بعض الباحثين ومؤرخي الفكر إلى أن المسلمين لم تكن لهم فلسفة خاصة بهم، واتهم العقلية الإسلامية بالسطحية وعدم قدرتها على التفلسف والتعمق في مشكلات الفكر، وقام المسلمون بنقل الفلسفة اليونانية بدون تعديل أو تحوير.

وذهب فريق آخر انها فلسفة عربية إسلامية تستند في حركتها على آيات القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة دعت إلى التفكر، وإن القرآن

الكريم أولى العقل رعاية خاصة جعلته في مستوى التلقي وتأسيس الفكر الإنساني المتطور.

وقد واجهت الفلسفة الإسلامية أو الفلسفة العربية موجة من الانتقادات الحادة منها على أساس عنصري يدعي بأن العرب جنس سامي لا يقدر على التحليل والتفكر بدقة، ومن هؤلاء الكونت جوبينو ورينان وجوتيه، ويذكر جوتيه (إن الروح السامية تمتاز بالوحدة والبساطة، أما الروح الآرية فإنها تمتاز بالكثرة أو التعدد والتعقيد، والساميون يعتنقون التوحيد المطلق الذي يتمشى مع فطرتهم الساذجة.. أما العقل الآري فهو عقل جمع ومزج وتركيب يربط الجزئيات في كل متناسق، والواقع ان هذه النظرية سببت يقظة لدى الشعوب الإسلامية وان الاستعمار الغربي كان يمثل إدانة واضحة للعقل الآري، كما يدعي أصحاب هذه النظرية التي تؤكد التحجر الجنسي والعنصري.. وكذلك فإن التطور العلمي أثبت بطلان دعوى العنصرية واستحالة وجود مجتمع نقي ذي خصائص ثابتة، وكذلك من القضايا الداحضة لهذه النظرية هي ان الغرب ميز بين الساميين، ونظر بازدواجية فحكم على العرب وعلى المسلمين بالتخلف واستثنى اليهود من هذه النظرة، بل تعامل بالعكس معهم، وهم بحسب نظرتهم كلهم ساميون)[1].

---

(١) ينظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان: ص١٤ وما بعدها.

وهناك من أنكر الفلسفة الإسلامية على أساس ديني مُدعياً بأن القرآن وتعاليم النبي محمد ﷺ أعاقا الفكر وحجرا على المعرفة.

والفلسفة نشأت في بيئة إسلامية متفاعلة بين الدين الجديد الذي هو الإسلام والأديان والثقافات الأخرى وبدايتها سجلت عند شخصيات كانت مطلعة على أصول الثقافات السائدة مثل الثقافة الفارسية والفلسفة اليونانية، وعند تفاعلها مع المفاهيم الإسلامية أنتجت فكراً جديداً متنوعاً ومستوعباً للمتغيرات الفكرية لذلك كانت شخصيات مثل الجهم بن صفوان والجعد بن درهم وغيلان الدمشقي وغيرهم من رواد النظر العقلي قد اطلعت على هذه الألوان من الثقافات، وحاولت تكييفها مع العقائد الإسلامية والرؤية الإسلامية.

فقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست (عن غيلان الشعوبي ان أصله من الفرس، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون.. وهذا غير غيلان الدمشقي، وعن أخبار سهل بن هارون من أهل الحكمة الأوائل انه كان حكيماً فصيحاً شاعراً فارسي الأصل شديد العصبية على العرب)[1].

وبناء على ذلك كان هناك نوع من التنافر بين علماء الشريعة وعلماء الحكمة، وإن الاطلاع على ما أنتجه الفلاسفة المسلمون يؤكد ان هؤلاء أنتجوا فلسفة خاصة بهم مستمدة من الأصول الإسلامية تستحق أن يطلق

---

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرزاق: ص٥٩ .

عليها فلسفة إسلامية تجاوزوا فيها الفلسفة اليونانية القديمة، وأبدعوا في صياغة نظريات فلسفية جديدة تنتصر للعقيدة الإسلامية ومعطيات النصوص الدينية على الرغم من أن هؤلاء الفلاسفة كانوا قد اطلعوا على نتاجات الفلاسفة اليونانيين ومعلميهم الأوائل، فقد نقلت إليهم فلسفة اليونان والفرس والهند، فظهرت آثار هذه الفلسفات في فكرهم إلا ان الغالب على هوية هذه الفلسفة هو الهوية الإسلامية، وقد تطورت الفلسفة الإسلامية على يد علماء الكلام الذين وظفوا العقل والمنطق للاستدلال على العقيدة الإسلامية وبالإضافة إلى ذلك فإنهم قدموا رؤية جديدة للنصوص الدينية تعطي حركة فكرية عقلية ولم يتوقفوا عند ظاهر النص وأثروا الفكر الإسلامي بالحجج المنطقية التي تؤكد بأن العلم الخالص لن يتعارض مع الدين الخالص، بل ان البحث العلمي في رحلة العقل والملاحظة سوف يعزز الإيمان بالله ويمنح أصحابه ثقة بدينهم ويقربهم إلى ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1]، والراجح في دلالة لفظة العلماء هنا هم علماء الطبيعيات والعلوم التي تربط بين قراءة الكون وقراءة القرآن، كما ذكر ذلك الكثير من علماء الإسلام.

---

[1] سورة فاطر: من الآية (٢٨).

خامساً: التصوف.

يعد التصوف من العلوم المهمة في بنية الفكر الإسلامي لان التصوف هو في حقيقته علم الأخلاق، كما يعرفه الشريف الجرجاني بأنه: (الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال.. كما يعرفه ابن خلدون في المقدمة: رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده مقدماً الاهتمام بأفعال القلوب ومراقباً خفاياها حريصاً على النجاة)[1]، وإذا كان التصوف يرتبط بعلم الأخلاق فإنه يشكل فرعاً من فروع المعرفة الإسلامية أو الفلسفة، كما يقسمها علماء المعرفة وبالإمكان تفصيل ذلك بما يأتي:

١. علم الكلام يقابل علم اللاهوت أو الإلهيات وفي الفلسفة الجانب المعرفي النظري الابستمولوجي.

٢. علم التصوف يقابل علم الأخلاق أو علم القيم الاكسيولوجي.

وكان التصوف في بدايته يعبر عن الاتجاه التربوي الأخلاقي في الإسلام ويستند في تعاليمه وبرنامجه على آيات القرآن الكريم وتوجيهات النبي (ﷺ) وعبر عن روح تعاليم الدين الإسلامي في إحياء الضمير ومراقبة الله في كل عمل، ولكنه بعد دخول المفاهيم الاشراقية أي التأملية والروحانيات والأفكار التي تعبر عن الفلسفة الهندية والشرقية في تصورها

---

(١) التصوف والعرفان الإسلامي، د. ياسين حسين الويسي: ص٤ .

للحياة والروح والإنسان تحولت دلالة المصطلح إلى اتجاه أوغل في الروحانيات على حساب الواقع والنظرة الواقعية الإسلامية، ولم يكن التصوف في بدايته يحمل اسماً اصطلاحياً، وإنما كان تعاليماً تربوية تعزز عن تهذيب الإنسان ورصيده الأخلاقي، وكما قالوا: كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمى له.. وبعد الجيل الأول تم الاصطلاح على المسمى وهو أمر لا عهد للمسلمين به وإنما عدوا هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لابد منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي غير ان الاهتمام بالاسم الجديد تغلب شيئاً فشيئاً على الاهتمام بالمسمى القديم.. ثم جاء من بعد هؤلاء خلق آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقبة ليس في داخلها مزار.. ولكن للحق لا يزال في المتصوفة من هم على سنن الرعيل الأول)[1].

وفي الإسلام والقرآن تحديداً دعوة صريحة للتفاعل الروحي ومراقبة النفس وإصلاحها، وإن المهمة الأولى للإنسان هي التزكية أو تزكية نفسه وتخليصها من التصورات والنزعات المادية والشهوات، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2]، وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى عزلة الفتن والمفاسد وتطهير النفس بالترقي

---

[1] الإدراك الروحي بين التصوف والنورسي، مجموعة باحثين، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص ٥-٦.

[2] سورة الشمس: الآيات (٧-١٠).

بالعبادات، ولعل أهم من ذلك الترقي بالعلم والفكر، ولذلك مارس التصوف والزهد أكثر علماء الإسلام من جيل الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فقد كانوا النماذج التي يحتذى بها في الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها وارتبط بالتصوف علماء من كل مذاهب الإسلام.

فكان فيهم من الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة والامامية وغيرهم من فرق المسلمين، وتطورت ممارسة التصوف من العفوية والتلقائية المستجيبة لتعاليم الإسلام إلى برنامج له أصوله وطرقه يعتمد على العلوم العرفانية، والعرفان يعرفه ابن سينا (ت٤٢٨هـ): (بأنه مبتدئ تفريق ونقض وترك ورفض ممن في جمع)[1]، وهو تعريف يشمل التركيز على الذات وتمييزها عن غيرها لعدم الغفلة ورفض نسيان الذات ومراقبتها وتحصين النفس في طريق التزكية، وكذلك يعرفه السيد الطباطبائي: (بأنه إدراك بعلم سابق أو ارتقاء على علم سابق.. ويعرفه الشهيد مطهري: هو علم السير والسلوك، فهو عبارة عن علاقة الإنسان وواجباته تجاه نفسه والكون وخالقه.. وهو بيان البداية التي ينبغي للسالك أن يخطوها للوصول إلى التوحيد ولابد للسالك أن يسلك جميع هذه المراحل بإشراف إنسان متكامل قد سلك بدوره هذا الطريق وتعرف على تلك المنازل يطلق عليهم العرفاء)[2].

---

(١) التصوف والعرفان الإسلامي / م. س: ص٩ .

(٢) التصوف والعرفان الإسلامي / م. س: ص١٠ .

وذهب الكثير من الفلاسفة إلى اتجاهات روحية للتعبير عن اللذة والسعادة وهي المعاني التي يعالجها التصوف كما تعالجها الفلسفة في النظر وحركة الفكر لذلك نرى أن ابن سينا يذهب إلى أن اللذة الباطنية العقلية أعظم من اللذة الحسية وما اللذة سوى نيل الخير المناسب لكمالنا ذلك الخير الذي يشتمل عليه المعقول، وقد أشار البعض إلى أن ابن سينا لم يكن كالفارابي ممارساً للتجربة الصوفية، بل كان دارساً لها فحسب)[1].

ويمر السالك في طريق التصوف بمراحل ويترقى بالدرجات، وقد كتب الكثير في درجات الترقي الصوفي وحتى إن ابن القيم كتب مدارج السالكين بين منزلة إياك نعبد وإياك نستعين لمعارضة كتاب الزاهد الصوفي الهروي (منازل السائرين)، وفي أكثر من موضع كان يرد عليه ولكن بأسلوب يراعي فيه الاتجاه الصوفي المستند على التأصيل الشرعي الذي حاول أن يحققه الهروي في كتابه منازل السائرين ولكن ابن القيم كذلك حاول أن يثبت بأن الاكتفاء بالطريق الذي يتبع فيه النصوص أسلم.

ويميز ابن سينا بين الزاهد والعابد والعارف وهي أحوال يمر بها السالكون، فالزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها أما العابد فهو المواظب على العبادات المطيع لأوامر الشارع.. أما العارف فهو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره.. وعبادته ليست عن رهبة أو معاملة ثمرتها الثواب، بل هي رياضة وإيثار للحق الأول ذاته

---

[1] تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام / م. س: ص٣٢٩ .

وعشقاً لها.. ويعرض ابن سينا لمراحل الطريق الصوفي في رسالة سلامان وابسال فيذكر ان أول درجات العارف هي الإرادة ويسمى في هذه الحالة مريداً ثم يصير إلى حال الوقت ويزداد حصول الاشراقات له فيصل إلى السكينة وتحصل له ملكة مشاهدة الأنوار العليا حتى يشاهد ذاته وحين يشاهدها يكون مشاهداً لله، وهذا هو حال حصول الوصول أو (الوحدة التامة) فحين ذلك يرى بعين الألوهية ويسمع بسمعها ويفعل بقدرة فلا يكون ثمة تمييز بين العارف وموضوع المعرفة أو بين الباحث عن الحق والحق نفسه وهذا هو حال الوقوف)[1]، وكما هو معروف بأن التطور الذي حصل للتصوف في مجال العرفان والأحوال كان يستمد أصالته من النصوص الشرعية والشواهد من السيرة والسنة النبوية المشرفة، وإن التصوف في بدايته كان واضحاً وبسيطاً في اتجاهاته السلوكية والتربوية ثم تطور إلى مدارس صوفية لكل منها مواصفاته الخاصة بالتربية والسلوك وأهم هذه المدارس هي:

### ١. المدارس السلوكية:

أ. مدرسة الزهد التي كانت تعبر عن ردة فعل المجتمع الإسلامي تجاه الدنيا ومغرياتها التي انفتحت على المسلمين بعد الفتوحات ودخول الأمم في الإسلام، وشكلت هذه المدرسة الأساس الذي قام عليه التصوف في جميع أدواره وأهم ملامحها هي العبادة والنسك والتقشف واتباع السلف

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام / م. س: ص ٣٣٠.

الصالح والمحبة والإخلاص والمجاهدة والتمسك بأحكام الشريعة..

وعلى رأس هذه المدرسة كان الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

ب. مدرسة الذوق والمعرفة: وهي المرحلة التالية للزهد في التصوف وتقوم على أساس الذوق والرياضة الروحية ومراحل النفس وغيرها من الممارسات الروحية وتزعمها أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وقامت على أساس أن المنطق العقلي والمعرفة العقلية لا تكفي في الوصول إلى حقائق الوصول والإيمان بالله تعالى.

ج. مدرسة الكشف والتجليات: وهي المدرسة التي وصلت إلى أعلى مراحل الرياضة الروحية، وتبلورت فيها وحدة الوجود أو وحدة الشهود، وقامت هذه المدرسة على أساس الكشف مع أحوال أخرى مثل الوجد والصعق والسكر، وأبرز شخصيات هذه المدرسة ابن عربي (ت٦٨٣هـ)، وابن الفارض (ت٦٧٦هـ)، وتميزت هذه المدرسة بغموض المعاني والألفاظ الإشارية.

٢. المدارس الصوفية من حيث التقسيم المكاني:

أ. مدرسة المدينة: على رأسها سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ).

ب. مدرسة البصرة: وكانت البصرة مركز المعرفة والزهد والفلسفة، ومن أبرز شخصياتها بعد الحسن البصري مالك بن دينار (ت١٣١هـ)، وثابت البناني وأيوب السختياني.

ج . مدرسة الكوفة: وأبرز رجالها سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) قتله الحجاج الثقفي، وكذلك ابن السماك والأعمش.

د . مدرسة بغداد: انتقل التصوف إلى بغداد بعد البصرة وكذلك باقي العلوم العقلية بعد أن ضعف دور البصرة، وأبرز شخصيات هذه المدرسة الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ).

هـ . مدرسة نيسابور: ومن أبرز رجُالها أبو حفص الحداد وحمدون القصار ولها سمات في الأحوال والسلوك يختلف عن المدرسة البغدادية.

و . مدرسة مصر والشام: كانت هذه المدرسة آخر مدرسة أمدت المغرب العربي في نظريات التصوف، وأشهر رجالها ذنون المصري (ت٢٤٥هـ)، وكان في مصر، أما في الشام فكان سليمان الداراني (ت٢١٥هـ)، وأغلب كلام هؤلاء في العزوف عن الدنيا وملذاتها[١].

وركز ابن خلدون عناصر التصوف في أربعة وهي: المجاهدات والاذواق والمواجيد ثم الكلام في الكشف عن عالم الغيب والكرامات والشطحات[٢].

وكان التصوف يعبر عن شعور داخلي في البحث عن الإيمان وحقائق الدين وإدراك أهل التصوف بأن الدين يحتاج إلى رصيد من الشعور الداخلي والطمأنينة أكثر من القناعة العقلية وإن كان الإيمان هو في حقيقته أمر أكثر

---

(١) ينظر: التصوف والعرفان الإسلامي، د: ياسين الريسي: ص١٦.١٨.

(٢) الفرق والمذاهب الإسلامية، سعد رستم: ص١٧٨.

من مجرد الشعور فهو يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة، ولذلك لم يجد علماء التصوف ضالتهم في الفلسفة والعمل العقلي، فلجأوا إلى الرياضة الروحية وطريق التصوف فكان تجلي اللانهائي عن طريق الوعي الصوفي هو الذي أقنع الغزالي بتناهي العقل وعجزه عن الوصول إلى أحكام جازمة.. وإن هدف القرآن هو أن يوقظ في نفس الإنسان شعوراً أسمى بما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة.. وعلى هذا فإن توكيد الروح الذي سعت إليه النصرانية يتحقق لا باستبعاد القوى الخارجية التي تخترقها الأنوار، وإنما يتحقق بتنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى على هدي النور المنبعث في العالم الموجود في أعماق النفس)[1]، وعلى هذا الأساس ان التجربة الصوفية عبرت عن قضية استحالة وصول العقل بعجزه إلى إدراك المطلق فلجأت إلى الرياضة الروحية لتعيش حالات الذوق والكشف التي لا يمكن تحقيقها عن طريق المعرفة المجردة.

---

[1] تجديد التفكير الديني، محمد اقبال، ترجمة عباس محمود: ص٥٣.٥٤ .

## المبحث الثاني: المدارس الفكرية والفرق وأثرها في حركة الفكر الاسلامي.

المعروف ان علم الكلام نشأ في أحضان الفرق واتجاهاتها التي تبلورت بسبب الاختلافات في التطبيق للنصوص الدينية ودلالتها، وبسبب تطور الحياة الثقافية للمجتمع المسلم، وقد يكون هناك سبب ثالث وهو الخلاف السياسي حول الامامة الذي كان أول الخلافات بعد وفاة الرسول ﷺ ويجمع كتاب مقالات الفرق الإسلامية على ان النظر العقلي في العقائد الدينية بدأ في الإسلام على أيدي المعتزلة وأسلافهم القدرية والجهمية، وفي ذلك يقول طاش كبرى زاد: اعلم ان مبدأ شيوع الكلام كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة، ويقول ابن نباته المصري كان الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن من أمة محمد ﷺ بدمشق ثم طلب فهرب ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي ينسب إلى الجهمية.

ويقول الخياط المعتزلي: إن المعتزلة أرباب النظر دون جميع الناس، وإن الكلام لهم دون سواهم.. وبالإمكان استنتاج مجموعة من الحقائق المهمة من النصوص أعلاه وهي:

١. إن النظر العقلي في العقائد بدأ على أيدي الجهمية والقدرية والمعتزلة، وكان ذلك نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة.

٢. إن أهم مسألتين سببتا الخلاف والنظر هما مشكلتا الصفات الإلهية ومسألة القدر في مجال الفكر أما في مجال السياسة فكانت الإمامة هي أولى المسائل التي أثارت الخلاف بين علماء الإسلام.

٣. إن الذين بحثوا في هذه المسائل كانوا من الموالي وهم المسلمون الجدد الذين تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا الإسلام أي من أصحاب العقليات المركبة التي تستطيع النفوذ إلى أعمق المسائل الدينية والفلسفية والمتمرسين على طريق الاستدلال النظري[١].

ويذكر النوبختي وهو مؤرخ لفرق الشيعة بأن فرق الأمة كلها المتشيعة وغيرها اختلفت في الامامة في كل عصر، ووقت كل إمام بعد وفاته وفي عصر حياته منذ أن قبض الله محمد ﷺ[٢].

يتضح مما سبق بأن الفرق والاختلاف نشأ لأسباب عدة داخلية وخارجية، ولعل أهم الأسباب هي:

أ. الداخلية:

١. السياسية: وهي الاختلاف حول الامامة.

٢. الفكرية: وهي النظر في المشكلات العقلية تجاه التكليف مثل حرية الإرادة والقضاء والقدر.

---

[١] دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد: ص١٢٩. ١٣٠.

[٢] فرق الشيعة، أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث الهجري، تعليق: العلامة محمد صادق بحر العلوم: ص٢٢.

٣: النصوص الدينية ودلالتها فإن دلالة النص الديني تختلف من شخص إلى آخر اعتماداً على ثقافته وخلفيته وبيئته، ويضاف إلى ذلك ان النص الديني يمتاز بعمق الدلالة ومرونة الاستيعاب للمتغيرات لذلك نقل عن الإمام علي (عليه السلام) (القرآن حمال أوجه) أو قوله: (إن المصحف لا ينطق وإنما تنطقه الرجال) في إشارة إلى تنوع الفهم لدلالة النص الواحد.[1]

وكذلك هناك نصوص محكمة ونصوص متشابهة والمتشابه كان سبباً في بلورة اتجاهات التأويل.

٤. النفسية: إذ يوجد بعض الناس يحمل قلقاً تجاه المعرفة ولا يقتنع بالمعنى الظاهر المتبادر، وإنما يجنح باتجاه التأويل والتطرف والغلو، ويبحث عن مداخل ملتوية وينفلت من دائرة البيان الواضح بالاتجاه العملي إلى دائرة الغموض والتنطع، وقد حذرت أحاديث كثيرة من التكلف والتنطع وكثرة السؤال.

**ب. الخارجية: أهم الأسباب الخارجية هي:**

١. الديانات الأخرى والفلسفات التي كان يؤمن بها بعض ممن دخل الإسلام منهم وأخذوا يقيسون المفاهيم الإسلامية على خزينهم المعرفي.

---

(١) الراوية في نهج البلاغة ج٤، ص١٠٤، وكذلك في الطبري في تاريخ الامم والملوك: ج٣، ص١١٠، عن الموسوعة الشاملة.

٢. الكذب والانتحال في الروايات ودس بعض المفاهيم المنحرفة، وهو من المشكلات الكبيرة التي واجهت المسلمين ابتداءً من الأحاديث الموضوعة إلى الروايات التاريخية المكذوبة إلى الإسرائيليات في التفسير والمنحول من كتب الفلاسفة الأوائل التي دسها بعض أعداء الدين الجديد من أهل الديانات الأخرى للتشويش وإثارة المشكلات الفكرية.

وبناء على ذلك يرى معظم المستشرقين ومنهم فون كريمر، نيكلسون، بيكر ماكس ومكدونالد وآخرون إن مسألة القضاء والقدر والصفات الإلهية ظهرت في الإسلام بتأثير تعاليم الكنيسة المسيحية ونفوذ أساتذتها المتكلمين أمثال القديس يوحنا الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة.

ويذهب هذا المذهب بعض علماء الإسلام مثل ابن حزم والشهرستاني والبغدادي، ويرى آخرون وخاصة فنسنك، واط، ترنون، والمرحوم مصطفى عبد الرزاق إن الخلاف العقيدي والجدل الديني نشأ بسبب من تعاليم الإسلام ذاته وكنتيجة للتطور السياسي والاجتماعي للجماعة الإسلامية نفسها)[1].

يتضح مما سبق بأن الفرق الإسلامية أو المدارس الكلامية كانت نتيجة عوامل داخلية وخارجية لكن العامل المشترك فيما بينها بأنها كانت تدعي بأنها تعبر عن مفاهيم إسلامية سواء كانت جديدة جاء بها الإسلام، أم انها

---

[1] دراسات في الفرق / م.س: ص١٣١.

كانت لدى الأمم الأخرى والديانات الأخرى ولكن الرواد من مؤسسي الفرق وضعوا لها إطاراً إسلامياً، واستطاعوا أن يربطوا بين الأفكار القادمة أو الواردة وبين مبادىء الإسلام، ويكيفوا هذه المفاهيم والأفكار مع العقائد والمفاهيم الإسلامية، وكان المخلصون من هؤلاء صادقين في محاولتهم عندما كانوا يحاولون الدفاع عن المفاهيم والعقائد الإسلامية وعلى هذا يصرح ابن رشد في الاعتذار عن الاختلاف في دلالة الألفاظ والآيات المشكلة أو المتشابهة فيقول: (ويشبه أن يكون المختلفون في تأويل هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين وإما مخطئين معذورين..

فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ولذلك قال (صلى الله عليه وسلم): إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر (رواه أبو داود).. وأما الخطأ من غير العلماء فهو إثم محض وسواء كان الخطأ في الأمور النظرية أو العملية .. وبالجملة فالخطأ في الشرع على جزئين، أما خطأ يعذر فيه من هو من أهل النظر.. كما يعذر الطبيب الماهر إذا أخطأ في صناعة الطب، والحاكم الماهر إذا أخطأ في الحكم.. وأما خطأ ليس يعذر فيه أحد من الناس مثل معرفة ذلك الشيء بهذه الجهة ممكنة للجميع مثل الإقرار بالله تعالى وبالنبوات وبالجزاء الأخروي، وهذه الأصناف الثلاثة التي لا يعرى أحد من الناس عن وقوع التصديق بها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس

حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي) (رواه مسلم) يريد بأي طريق اتفق لهم)[1].

وقد صرح أهل العلم بأن هذه الفرق داخله في أمة الإسلام إذا آمنت بالله تعالى، والنبي ﷺ واليوم الآخر فإذا اختلفت في باقي الأصول في الكيفيات والفهم فيتركون على نيتهم وحسابهم على الله،

وأكثر من وقع في الإنكار هم من انحاز إلى معيارية عالية جعلته يعتقد بأن المخالف ضال وكافر، وإذا لم يؤمن بما آمن به هو فإنه كافر وقضية التكفير من أخطر الأمراض التي ابتليت بها الأمة وظهرت مع الخوارج، كما تحدثنا سابقاً ولذلك يذكر المفكر الإسلامي على شريعتي: إنك إن تسعى جاهداً لإنقاذ نفسك من النار خير لك من أن تسعى جاهداً لإثبات خطأ مخالفك أو انه في النار[2] وهذا كلام حق، ولما كانت ظاهرة الفرق من الظواهر الفكرية الطبيعية في حياة البشر ولا سبيل الى تجاوزها بسبب الاختلافات الطبيعية في الفهم والفطرة والاستعدادات العقلية، وكذلك الثقافة ومستوى الإيمان، وإن الله خلق البشر مختلفين ولا يمكن بحال أن نجد مجموعة بشرية متفقة تمام الاتفاق، وإن اسباب الاختلاف كثيرة وإن المسلم مطالب بتقبل الخلاف والتعايش معه والابتعاد عن اهدار الجهود والطاقات في جدل وردت الأحاديث الكثيرة والآيات الدالة على كراهية

---

[1] ينظر: فصل المقال / م. س. ص١٠٥ وما بعدها.

[2] ينظر: الاعمال الكاملة لعلي شريعتي. فقد جاء عن علي شريعتي معنى هذا الكلام.

الخوض فيه ولا سبيل إلى الاتفاق على حقائق الدين إلا عن طريق الوحي، فوجب أن نكيف واقعنا للاعتراف بالتعدد الفكري، وهذه الحالة عاش عليها أكثر العلماء من أمة الإسلام في القرون الأولى، فكانوا يتعايشون ويتواصلون ويعقدون الحوارات واللقاءات الفكرية، ويستدلون على مذاهبهم بالأدلة العقلية والنقلية، ولم ينقل ان خلافاً أدى إلى صراع أو أعمال عنف سوى ما نقل عن الخوارج اللذين لجأوا إلى السيف.

وبسبب الاتجاهات الفكرية نشأت ظاهرة التأويل للخروج من مشكلة التعارض بين العقل والنقل.

**التأويل:**

وهو قانون فكري يعرف بأنه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الظاهرية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعاده لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهة أو بسببه أو لاحقه مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عددتْ في تعريف أصناف الكلام المجازي)[1].

والتأويل ظاهرة طبيعية مارسها أهل الديانات السماوية السابقة في تداولهم للنصوص المنزلة على أنبيائهم، ففي اليهودية ارتبط التأويل باسم فايلو الإسكندراني (٢٠ ق. م - ٥٠م) الذي حاول إبعاد التجسيم الذي يؤدي إليه التفسير الحرفي لبعض نصوص التوراة، وقد حمل فايلو حملة

---

(١) دراسات في الفرق، د. عرفان / م. س: ص٢٠٥ .

شعواء على أولئك الذين يتمسكون بالحرفية والظاهر في تفسير النصوص.. وسار على نهجه عدد من لاهوتي اليهود في العصور الإسلامية مثل سعدايا الفيومي صاحب كتاب الأمانات والاعتقادات وآخرون..

وفي المسيحية ظهر عدد من كبار آباء الكنيسة حاولوا إبعاد التجسيم عن الله تعالى، وذلك بإيجاد تأويلات مجازية للنصوص الدينية، ومن هؤلاء كليمانت الاسكندراني (١٥٠م-٢١٥م)، والقديس أوغسطين (ت٤٣٠م)، ويوحنا الدمشقي (٧٥٤م)، ويعد أكبر لاهوتي في الكنيسة الشرقية، وقد أفرد فصلاً كاملاً في كتابه المشهور (حول الدين الأرثوذكسي) للتأويلات المجازية في الصفات الخبرية التي ترد في الكتاب المقدس، أما في الإسلام فإن التأويل كمنهج عقلي يرتبط بالمعتزلة الذين أيقنوا بأن التصورات والأحوال التي لا تتفق مع طبيعة الإلوهية لا يكون إلا عن طريق تأويلها مجازياً.. فقد وجدوا في القرآن الكريم والحديث النبوي نصوصاً إذا أخذت حرفياً أدت إلى التشبيه والتجسيم، وإذ ثبت عندهم بالدليل العقلي ان الله تعالى منزه عن الجسمية والجهة قالوا لابد من صرف هذه الصفات عن معانيها الظاهرية الحرفية إلى معان أخرى مجازية.. واستعانوا بنصوص قرآنية في آيات أخرى وباللغة التي يجدون فيها ما يساعدهم في تقرير المعاني التي يرونها وقبل المعتزلة مارس التأويل جماعة من رجال السلف مثل مجاهد المكي (١٠٢هـ)، وعطية الكوفي.. ورغم ما في التأويل الاعتزالي أحياناً من تعسف وافراط فإن العمل الذي بدأوه كان السلاح الوحيد للقضاء على

التشبيه والمشبهة، وقد أخذ به مع تعديلات طفيفة عامة المسلمين من شيعة وسنة ماتريدية وأشعرية، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: جميع فرق الإسلام مقرون بأنه لابد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار)[1]. ونقلت روايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فيها اشارات الى قبول التأويل في فهم بعض النصوص الموهمة بالتشبيه بين الخالق والمخلوقين، وقد وردت عن الامام الصادق (عليه السلام)، تأويل وجه الله بانه الوجه الذي يؤتى منه[2]. أي جهة الدعاء وكذلك نقلت روايات عن الائمة (عليه السلام)، بان من قال بتشبيه الخالق بالمخلوق فهو مشرك.

وقد ألّف الرازي كتابه أساس التقديس للدفاع وتبرير التأويل وجواز التأويل يستند إلى قيام البرهان على استحالة الظاهر، واشترطوا أن يكون المعنى الظاهر يؤدي بحرفه إلى التجسيم، وقام الدليل العقلي على بطلانه وان لا يهدم التأويل أساساً من أسس الشريعة وان تتحمله اللغة العربية.

ولكن التأويل قد يؤدي إلى ضياع الكثير من حقائق الدين وتعطيل فاعلية وأثر النصوص الدينية بسبب تداوله في غير محله ومن غير أهله، لذلك اشترط العلماء لممارسته ما ذكرنا وكذلك منعوا التأويل بين فئة العوام، وقللوا من الخوض في التأويلات المجازية وامتنعوا من صرف الظواهر إلا

---

(١) ينظر: دراسات في الفرق / م. س: ص٢٠١ وما بعدها .

(٢) الاعتقادات، للصدوق/ ابو جعفر علي بن الحسين القمي (ت٣٨١هـ)، تحقيق: مؤسسة الامام الهادي/ ص٤٣ من النص المحقق.

بقدر وحذر، ولذلك ألّف الغزالي كتابه المعروف الجام العوام عن علم الكلام، وفي بعض كتبه الأخرى مثل الاقتصاد في الاعتقاد يحذر من التوسع في إشاعة ثقافة التأويل ولهذا السبب ازدادت الاستقطابات بين الفرق، وحدثت خصومات وتفرق الكثير بسبب هذه الاختلافات في الفكر ولابد أن نقرر إن الفرق الإسلامية اختلفت لسببين سبب فكري وسبب سياسي، السبب الفكري هو الخلاف في الاستدلال وفهم معنى مراد النص أو الوحي، والسبب السياسي الذي تبلور حول الامامة واستحقاقاتها وهذه الأسباب أفرزت نوعين من المدارس الفكرية وهي:

١. أهل السنة وتبلورت في عدة اتجاهات أو فرق أو مدارس منهم: الأشاعرة ـ الحنابلة ـ الماتريدية ـ المعتزلة ـ وأكثر هذه الفرق المنتمية لمدرسة أهل السنة ضعفت واندرست ولم يتبق إلا الأشاعرة والحنابلة، وإن كانت آثار بعض هذه الفرق لازالت موجودة.

٢. الشيعة: الامامية الاثني عشرية أتباع اثني عشر اماماً من نسل الإمام الحسين (عليه السلام).

الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام).

الإسماعيلية أتباع إسماعيل بن محمد بن جعفر (عليه السلام).

وأكثر فرق الشيعة ضعفت أيضاً وبعضها اندرس وبقي الامامية والزيدية هم غالب الشيعة.

٣. فرق غالية ومتطرفة من المدرستين، وهؤلاء تشكلوا ضمن أقليات منغلقة باطنية لا تصرح بمعتقداتها للعامة أمثال بعض فرق الصوفية والدروز والكيسانية وغيرهم.

نستنتج مما سبق بأن الخلاف الفكري صدر من علماء الفرق الذين تأولوا النصوص، وكذلك أدت بعض الأحداث إلى اتخاذ مواقف وتطرف وحمل السلاح بوجه بعضهم البعض ولذلك نرى ان الخلاف لا يمكن إلغاؤه ولكن يمكن التعايش معه والانطلاق في بناء حضاري يحركه التكامل المعرفي والتسامح.

خلاصة الفكر في موقف المدارس الإسلامية الكبرى بالإمكان وضعها في علاقة فكرية كما يأتي:

١. إن الخلاف بين أهل السنة والشيعة إنما هو خلاف في جوهره متعلق بمشكلة سياسية، وقد اتخذ طابعاً عقائدياً؛ لأن السياسة لا تنفصل عن الدين في الفكر الإسلامي، فالخلاف لا يدخل في تفاصيل الإيمان بالله ولا بالنبي ﷺ ولا في اليوم الآخر وهي الأصول المشتركة لجميع الفرق والمدارس الإسلامية.

٢. إذا اعتبر الشيعة الامامة من أصول الدين فذلك يعني إنها لدى أغلب فرقهم أحكام إلهية، وإذا اعتبرها أهل السنة من الفروع فما ذاك إلا لأن السياسة من الرسول ﷺ لم تكن غاية في ذاتها وإنما وسيلة لنشر الدين

وعقائد الإسلام بحسب تفسير أهل السنة للامامة أو النظام السياسي بعد النبوة.

٣. إذا كانت نظريات فلسفة السياسة تبحث في أصلح نظام في الحكم فإن إجابة الشيعة هو الحكم الإلهي، وإجابة أهل السنة مع شيء من التجاوز انها الشورى أو ما يسمى بالمصطلح السياسي الحديث الديمقراطية، ولكن لابد أن نقرر بأن طبيعة هذا الحكم الإلهي ستعود إلى الاجتهاد والفكر البشري عند غياب الوحي أو غياب الامام المعصوم.

إذن ليس خلاف السنة والشيعة مجرد اختلاف حول أحقية أبي بكر أو علي بقدر ما هو اختلاف في أصلح نظام للحكم.

ومرة أخرى ظهور الفكر السياسي في بيئة دينية هو الذي جعل من الأحزاب السياسية فرقاً دينية)[1].

وكل ذلك يدعو إلى توظيف الايجابيات وتجاوز السلبيات والعمل على وحدة الأمة وانقاذها من التشظي والصراع الذي لا ينتج ثمرة مفيدة لا دنيا ولا آخرة - والعمل على تعزيز العلاقة مع الله فهو صاحب الأمر هكذا فعل الأئمة (عليهم السلام) وعلماء المسلمين المخلصون.

---

[1] ينظر: الفرق والمذاهب الإسلامية، سعد رستم: ص ٢٥٠ .

## التجديد في الفكر الاسلامي.

### اولاً: حركية النص القرآني

يتميز النص القرآني عن سواه من النصوص السماوية، وغير السماوية بالحركية والمرونة التي جعلته نصا ملائما لكل عصر، وهو وإن نزل في زمن معين وبقعة محددة، ولأمة معينة، لكنه خطاب عالمي الدلالة، وإن كان عربي الدلالة، إذ يمكن أن يُستدل ويُستفاد من آية واحدة، حكما معينا في زمن ما، وحكما أخرا في زمان أخر.

والحق إن القرآن معجزةٌ الآن كما كان معجزةً في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يفيض بعطاياه لكل جيل وفي كُلّ زمان، حيث أنّ البشرية تكتشف أعماقاً جديدة في القرآن يوماً بعد يوم، وخاصة في آيات الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ سورة فصلت/ ٤١، فقد تحدّث القرآن عن كروية الأرض، والغلاف الجوي للأرض، ونسبية الزمان و غيرها من الأمور، في وقت لم يكن أحد يمكنه أن يفهم أو يتصوّر ما يقوله، فذكر ذلك على شكل إشارات يكتشفها الباحثون، ويتلقاها العالمون[1].

---

(١) مركز الأبحاث العقائدية: موسوعة من حياة المستبصرين/ط١(١٤٣٠هـ)/مطبعة ستارة . قم ٥٧٨/٥.

ولا يخفى مافي قوله تعالى (سنريهم)، باستخدام (سين) الإستقبال والفعل المضارع (نريهم)،المتعلق بفعل المستقبل، من إشارة واضحة الى الزمان المستقبلي، فضلا عما في كلمة (آفاق)من استبطان تعدد الجهات التي يمكن أن يطلع عليها الإنسان، وما ستفتحه من آفاق العلم والمعرفة، التي تهيئ للإنسان أسباب الإيمان بالله سبحانه، من خلال التعرف على بينات الله وحججه، والخضوع لها والتسليم بها.

فهي إذن دعوة لتهيئة العقل للإستدلال، والفكر للتأمل والنظر في الآيات، انطلاقا من النفس، التي هي المكون الأول والأقرب للإنسان، كما أنها القاعدة الأساس التي تشكل المنطلق الواسع للفكر الإنساني، في أن يجول في عالم الآيات والبينات الموصلة والدالة على غاية وحقيقة وجوده في هذا الكون، تلك الحقيقة، التي ستوصله الى حقيقة وجود الخالق سبحانه وتعالى .

بالتالي فالنص القرآني، نص عابر للحدود الزمانية، التي تحدد كل نص، سوى النص القرآني، بل فيه ما فيه من القدرة على استيعاب كل مجالات الحياة على تنوعها وتعددها، غير أنه، لا يمكن اسكناه روائع القرآن الكريم، واستنباط أحكامه الى لمن أوتي حظا من العلم، ونصيبا من المعرفة، يحوطهما الإخلاص بالنية التوفيق الإلهي.

والحق أنه كلما تقدمت البشرية بمعارفها، كلما وجدت في القرآن ما يبهرها، من جهة مواكبة النص القرآني لمتغيرات الحياة المختلفة، وبهذا فإن

مفهوم الإعجاز القرآني لم يعد بحدود الإعجاز البياني أو اللغوي أو الغيبي، فحسب، بل تجاوزها الى أبعاد جديدة من الإعجاز .

وربما كان السر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن تتسع دائر فهم النص القرآني لغير العرب أيضا، وممن لا يعتقدون بالمعجزات إلا إذا كانت منطوية على حسابات مادية ذات طابع عددي أو علمي، تتلائم وتوجهاتهم العقيدية أو المادية، لذا فقد انفرطت عقود التفكر في القرآن الكريم، وأنتجت لنا الإعجاز العلمي والإعجاز العددي، وأصبح القرآن مرجعا لكثير من الباحثين، وفي أبواب العلم المختلفة، بيْد أنه لابد من التنبيه الى ما يأتي:

١ـ أن القرآن كتاب هداية في المقام الأول.

٢ـ ولأنه كذلك فإنه لايمكن إخضاع القرآن للنظريات العلمية المتغيرة .

٣ـ إن النص القرآني، نص يمكن أن يُستنطق، ولكن من ذوي الإختصاص، لاستخراج الأحكام، التي تكون موائمة لكل عصر ومصر.

ويمكن أن نقف على بعض النماذج التي تكشف عن حركية النص القرآن فمن جملة هذه الآيات، الآية التي تذكر الزوجية في النباتات، فكما قلنا سابقا: إن ظاهرة الزوجية في النباتات كانت معروفة للناس منذ القديم ولو بشكلها الجزئي .

ولكن لم تكن تعُرف بشكل قانون عام حتى أواسط القرن الثامن عشر حين استطاع العالم (لينه)،لأول مرة أن يكشف عن هذه الحقيقة، ولكن القرآن الكريم أخبر بذلك قبل أكثر من ألف عام))[1]، كقوله تعالى:

---

(١) ظ: ناصر مكارم الشيرازي:تفسير الأمثل ٣٣٧/٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾سورة الشعراء/٧، وقوله تعالى:﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾سورة لقمان/ ١٠،وقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾سورة الرعد/ ٣.

## ثانياً: التجديد في الفكر الاسلامي.

التجديد عند اهل المصطلح: هو:. " وجود شيءٍ كان على حالة ما، ثُمَّ طَرَأَ عليه ما غيَّره وأبلاه، فَإذا أُعيد إلى مثلِ حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البلى والتغيّر كان ذلِكَ تجديداً " (٢)

لقد استمد التجديد شرعيته من ورودِهِ في الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:. " إنَّ اللهَ يَبعث لهذهِ الأمَّة مَن يُجدِّد لها دينها على رأسِ كُلِّ مائة سنة " (٣).

---

(٢) مفهوم تجديد الدين، سعيد بصطامي محمد، دار الدعوة، الكويت، ط١، ١٩٨٤م / ١٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م . / ٤: ٥٦٧ برقم ٨٥٩٢ ، ينظر: سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النشر: دار الفكر، ط٢، ب.ت / ٤: ١٠٩ برقم ٤٢٩١، وينظر: تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣هـ، دارالكتب العلمية، بيروت، ب، ت / ٢: ٦٢.

ولكي يتَّضِح المعنى الشرعي للتجديد في الفكر الاسلامي، لاسيما في ظلال هذا الحديث النبوي المبارك كان الواجب أن نستعرض بعض أقوال أهل العلم عن التجديد والمجدِّدين.

قال ابن القَيم عن المجددين:. " هُمْ غَرْسُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ يَغْرِسُهُمْ فِي دِينِهِ وَهُمْ الَّذِينَ قال فِيهِمْ عَلِيُّ بن ابي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ لَنْ تَخْلُو الارض من قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ "(١)

إذاً فإن معنى التجديد هو:. " إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضياتها وإكثار العلم ونصرة اهله . " (٢)

ويظهر معنى التجديد الاصطلاحي الشرعي للتجديد بشكل أوضح بتعريف أبي الأعلى المودودي أيضاً إذ يرى أن المُجدد هو:. " كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد حبله بعد انتفاضه " (٣)

ثم أنَّ الرسول الكريم سيدنا محمداً صَلَّى الله عليهِ وسلَّم كان ولا زال المنهل العذب الذي يرتوي منه وينهل كل من صدق الله ورسوله صَلَّى الله عليهِ وسلَّم، حيث كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يأخذون منه

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣م / ٤: ٢١٢.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م / ٢: ٢٨٢، ينظر: موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودي، ترجمه الى العربية: محمد كاظم سباق، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م / ٦٢.

(٣) موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودي / ٦٢.

العقيدة الصافية ويتلقونها بكل قبول وتسليم دون اعتراض أو ابتداع، وذلك هو مقتضى التصديق والإيمان بالله العظيم وبرسوله الكريم صَلَّى الله عليهِ وسلَّم وبكل ما ورد من أساسيات الاعتقاد الثابت إلى يوم الساعة .

ولم يرد إلينا أن أحداً من الصحابة الكرام رضي الله عنهم تَرَدَّدَ في قبول هذا الاعتقاد العظيم . ولربما سألوا حضرة الرسول صَلَّى الله عليهِ وسلَّم عن بعض الأمور الشرعية العملية على سبيل الاسترشاد والاستيضاح، لا على سبيل المراء والعناد ولم يثبت أنهم سألوا في مسائل الاعتقاد إطلاقاً لأن إيمانهم كان مبنياً على صدق سريرتهم ونقاء قلوبهم وتصديق نبيهم صَلَّى الله عليهِ وسلَّم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليهِ وسلَّم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبِض صَلَّى الله عليهِ وسلَّم كلها في القرآن: يسألونك عن المحيض، يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن اليتامى، ما كانوا يسألون إلا عَمَّا ينفعهم "[1]

فلم يكن الصحابة رضي الله عنهم يبحثون عن الخلافات العقائدية ولم يكن يتبعون المتشابهات ولم تزغ قلوبهم عن دين الله عز وجل أبداً، حيث كانوا يفتخرون بعقيدتهم الصحيحة التي وحدت قلوبهم وأرواحهم وعقولهم، فلم يكن بينهم أي خلاف يُذكر .

---

[1] إعلام الموقعين، ابن القيم الجوزية / ١: ٧١ .

يقول طاش كبري زادة .. [1]: " إنَّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي صَلَّى الله عليهِ وسلَّم على عقيدة واحدة، لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال عنهم ظلام الشكوك والأوهام " [2].

ولم يتخلَّف الصحابة رضي الله عنهم عن هذا المنهج القويم بل استمروا على ذلك حتى بعد انتقال النبي صَلَّى الله عليهِ وسلَّم إلى ربه، حيث لم يقع بينهم أي خلاف في مجال الاعتقاد .

ويعلق ابن قيم الجوزية على هذه الحالة النقية قائلاً: " وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمدِ الله لم يتنازعوا في مسألةٍ واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال "[3] أما التجديد في العقيدة " فالقول بتجديدها أمر غير وارد نقلا وعقلا، لكن تلك العقائد قد تبنى عليها وعلى

---

(١) هو أحمد بن مصطفى، مؤرخ تركي الأصل، له العديد من المصنفات، توفي عام ١٥٦١هـ . ينظر: الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٧، ١٩٧٦م / ١: ٣٥٧ .

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبري زادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ب.ت / ٢: ١٤٣.

(٣) اعلام الموقعين، ابن القيم الجوزية / ١: ٤٩

ما يتفرع منها عقائد فرعية في فترة معينة من الأفكار البشرية، هي التي تحتاج إلى المواجهة والتصفية، من تأثيراتها السيئة، وانحرافاتها الخطيرة "[1]

فالتجديد لا يعني تغير الثوابت، أو إضافة شيء جديد عليها، وعلى هذا فإنه لا تعارض بين الثبات والتجديد، فأصول العقائد ثابتة لا تتغير، ولا يمكن أن تتعرض إلى نظر أو تأويل لقطعية الدلالة عليها من القرآن والسنة النبوية وإجماع الأمة.

فكل ما يظهر فكر فاسد، يحتاج إلى فكر إسلامي يناهض ذلك الفكر على أن لا يخرج عن دائرة الكتاب والسنة النبوية، أو هو إحياء ما اندرس لمسيرة الفكر الإسلامي، الذي هو الثمرة للجهد البشري المستند إلى ضوابط القرآن والسنة النبوية ونعني بالتجديد " أن تكون الحركة الإصلاحية، أو الدعوات الاجتماعية، مسايرة لتطور الحياة، وتقدم العلم والحضارة "[2].

فالتجديد كخاصية مهمة من خصائص الفكر الاسلامي، هو بيان ما طرأ من انحرافات غيرت شكل الحياة الدينية التي كانت على عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله، والحياة التي كانت على عهد آله الاطهار

---

(1) تجديد الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، لمحسن عبد الحميد، مكتبة دار الأنبار، العراق، ط١، ١٩٧٥م /٠ ٩٧/٠

(2) دعوة الإسلام واقعية لا خيال، لمصطفى السباعي، دار الورق والنيرن –بيروت، ط١ – ٢٠٠٣م/ ١٤٠/٠

وصحابته الاخيار، فما زاد على عهدهم من اخطاء اصابت الثوابت الشرعية، فالواجب ردها والعودة الى ما كان عليه العهد الاول .

## الثبات والتجديد جدلية العلاقة الفكرية:

ونعني بالثبات قيام الفكر الاسلامي على ثوابت رئيسية تنطبق في واقعه بإيجابية تامة صحيحة، وسر نجاحهما انهما قاعدتان، أي الثبات والتجديد ليس لأي شخص العبث بهما: " وبما أنه ليس انتاج فكر بشري، ولا بيئة معينة، ولا فترة من الزمن خاصة، ولا لعوامل أرضية على وجه العموم، إنما ذلك الهدى الموهوب للإنسان، هبة لدنيه خالصة من خالق الإنسان رحمة بالإنسان، ومن هذه الأسس والثوابت، تنشأ خاصية أخرى وهي الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت "(١).

" فهي لا تتغير، ولا تتطور، أما التغير فإنما يكون في ظواهر الحياة الواقعية وأشكال الأوضاع العلمية، وبالوقت نفسه يبقى هذا الوضع محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التطور "(٢).

وذلك ان المقصود بالثبات استمرار حركة الفكر، وليس الجمود ومصادرة حركة الابداع: " ولا يقتضي هذا تجميد حركة الفكر والحياة،

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب / ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٨٥ .

لكنه يقتضي السماح لها بالحركة بل دفعه إلى الحركة، ولكن داخل هذا الإطار الثابت وحول هذا المحور الثابت" [٣].

ومن هنا يتبين ان الحقائق الثابتة لا تتغير، وفي نفس الوقت هناك امور اخرى متغيرة ومتطورة تستند في حقيقتها الى الثوابت .

مثلاً: " مادة الكون، سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها، أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية، ولكنها تتحرك فتأخذ أشكالا دائمة التغيير، والتحور والتطور، الذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الإلكترونات في مدار ثابت، وكل نجم، وكل كوكب، له مداره يتحرك فيه حول محوره حركه منتظمة محكمة بنظام خاص"[١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ سورة الأنبياء الآيات: ٣٠-٣٣ .

هذه النصوص وغيرها مما في معناها " تدل على أن الكون تجري على مسرحه الحوادث، ويجري فيه تبديل وتغيير، ويتميز بالحركة، وتنتقل

---

[٣] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب / ٨٥.

[١] المصدر نفسه / ٨٦ .

حوادثه من طور إلى طور، هذه الحوادث مرتبط بعضها ببعض، ما بين سابق ولاحق، بانتظام واطراد، يدل على أنها تتبع سنن مطردة، في حدوثها وحركتها"(٢).

فالثبات يعني الميزان الذي يحدد صلاحية الفكر من خلال عدم تمرده على أصله وواقعه، وللثبات ميزه نفتخر بها و بها تحدد مدى صلاحية أفكارنا وأساليبنا في الحياة.

(٢) الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، مجموعة من المؤلفين، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط٧، ٢٠٠٧. /١٢٢.

# الفصل الرابع

# علم الكلام وأثره في تطور الفكر الإسلامي

# الفصل الرابع

# علم الكلام والفكر الاسلامي

## المبحث الاول: علم الكلام وتطوره.

### المطلب الاول: نشأة علم الكلام.

ارتبط علم الكلام بمسألة كلام الله وتعد مسألة الكلام من المسائل المهمة في مسائل علم الكلام وهي المسألة التي اختلف فيها علماء الكلام حول طبيعة كلام الخالق هل هو قديم أم حادث؟ والمعروف ان الإجماع واقع بين علماء الإسلام بكل فرقهم، إن الله متكلم لورود الأدلة النقلية والعقلية واخبار الرسل والأنبياء بذلك، وقد اتفق علماء العقيدة على هذه الحقيقة اتفاقاً اطباقياً، ولكنهم اختلفوا في وصفهم لطبيعة هذا الكلام، فذهب الأشاعرة إلى أن الله متكلم بكلام قديم، ولأن الكلام صفة المتكلم، وإن الله ليس محلاً للحوادث فوجب أن يكون هذا الكلام قديماً، وأثبتوا القديم هو الكلام النفسي، وذهب المعتزلة إلى أن الله متكلم بكلام يحدثه في المحل القابل للكلام، فالكلام في هذه الحالة حادث وليس قديماً، وانكروا الكلام النفسي وادعوا بانه مخالف للعقل، وذهب الامامية مذهب المعتزلة، وهناك خلافات كثيرة حول الكلام وطبيعته، وذهب الحنابلة الى القول بقدم الكلام وانكروا كذلك الكلام النفسي ولكنهم لم يبينوا حقيقة كلام الباري واكتفوا بانه قديم بلا كيف كسائر الصفات،

وإن وقوفنا عند هذه المسألة بسبب ارتباطها بعلم الكلام ارتباطاً وثيقاً إذ ان أحد أسباب تسمية علم الكلام هي ارتباط مسألة الكلام بهذا العلم، وهو العلم الذي احتل مكانة هامة بين مباحث الفلسفة الإسلامية وقد مثل المتكلمون بكل مدارسهم الفلسفة الإسلامية تمثيلاً دقيقاً وعميقاً، ولما كان الفكر الإسلامي في مرحلة التأسيس يتحرك ضمن مسار مباحث علم الكلام والفلسفة الإسلامية، فكانت تسمية هذه المرحلة بمرحلة الفكر الإسلامي الكلامي، لأن ثقافة مفردات علم الكلام هي التي تركز فيها الفكر الإسلامي في مرحلته الأولى.

وعلم الكلام يعرّف تعريفات عدة كما ذكرنا سابقاً وعن طريق التعريف نتعرف على ظروف نشأة علم الكلام ولعل أشهرها تعريف التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون (هو علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبهة.. ويذكر التهانوي انه: يجب أن تؤخذ العقائد من الشرع ليعتد بها وإن كانت مما يستقل العقل فيه، وفي ذلك ما يميز علم الكلام عن الفلسفة فعلم الكلام يرتبط بالنقل، وينتقل الى العقل في حين ان الفلسفة تبدأ وترتبط بالعقل ثم تنتقل إلى النقل، أي ان المتكلم يعتقد ثم يستدل أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد كما ذكر ذلك طاش كبري زادة في مفتاح السعادة)[1].

(١) ينظر: في علم الكلام/ م. س/ د. أحمد محمود صبحي: ص١٦ .

وعلم الكلام يتعلق بالأصول وهي العقائد وإثباتها والدفاع عنها، أما الفقه فيتعلق بالفروع وهي استنباط الأحكام ومعرفة الآراء المستنبطة من النصوص، وعلى ذلك احتل علم الكلام الأولوية في المعرفة الإسلامية لأنه سبب في التعرف على الإله المعبود وعلى أسس الإيمان وأصول الدين وتقسم مباحثه على ثلاثة أو أربعة مباحث بالتحديد وهي:

١- الإلهيات: وتبحث في أدلة وجود الله وصفاته وأسمائه .

٢- النبوات: وتبحث في أدلة النبوات العقلية والنقلية وشروط ومباحث النبوة، ويلحق الامامية مبحث الامامة بالنبوات فهم يعدون الامامة مكملة للنبوة.

٣- السمعيات: وهي المسائل المتعلقة بأمور اعتقادية ثبتت بالنقل أي بالسمع مثل الإيمان بالساعة وأشراطها وما بعد الموت واليوم الآخر وعذاب القبر والصراط وغيرها من مسائل لا سبيل إلى العقل لمعرفتها الا عن طريق النقل أي السمع.

٤- الطبيعيات: وهي مسائل الوجود والعدم والامكان والوجوب والجواهر والاعراض وما يتعلق بوجود الموجودات وطبيعتها، ويستدل المتكلمون بهذه المعرفة على معرفة الله تعالى وهي نوع من الاستدلال بالكون على المكون وأكثر الادلة ارتباطاً بهذه الفقرة هو دليل العناية والاختراع من أدلة وجود الله تعالى، وكذلك دليل الحدوث وباقي ادلة وجود الله تعالى التي توظف الدليل العقلي والعلوم الطبيعية.

وقد ذكر العلماء اسباباً عدة لتسمية علم الكلام بهذا الاسم منها لأن مباحثة الكلام في كذا فهو بإزاء المنطق للفلاسفة أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر الخلاف حولها واضطهد العلماء بسببها وذلك لتعلقها بكلام الله تعالى وخطورة أمرها، وكذلك من أسباب التسمية ان التمكن من هذا العلم يورث قدره على الكلام في الشرعيات مع الخصم.

ويضيف ابن خلدون تفسيراً آخر وهو سمي علم الكلام لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل[1].

وعلم الكلام علم نظري لا علاقة له بالأحكام العملية التكليفية فهو حركة فكرية تصورية وتصديقية؛ لأنه يتعامل في مسائل الاعتقاد.

(والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد كقولنا الله تعالى عالم سميع بصير قادر لا ما يقصد به العمل كقولنا: الوتر واجب أو الربا حرام)[2]، وهذه الأمور العملية محلها الفقه الذي تعامل مع استنباط الأحكام التكليفية من أدلتها التفصيلية، ولما كان علم الكلام يتعامل في مسائل العقيدة اكتسب في هذا المجال شرف المنزلة بين العلوم، ولما ذكر العلماء (ان غايته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان وإرشاد

(١) ينظر: في علم الكلام/ م. س: ص١٨. ١٩.

(٢) ينظر: مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي: ص٩.

المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين)[1].

أما ذم علم الكلام فإنه ينصرف إلى ذم علم الكلام البدعي الذي يوظفه أعداء الإسلام للطعن بعقائد الإسلام، وكذلك ما أورث الجدل وأثار الشبهات بين المسلمين وصرفهم عن العمل بالمحكمات إلى الجدل في المتشابهات، وقد ذم الحنابلة علم الكلام بسبب الظروف التي تداخلت بين محنة الإمام أحمد بن حنبل ومسألة إكراه العلماء على القول بخلق القرآن كل ذلك جعل بعض العلماء ينظر إلى ان جذور المشكلة نبتت في مسائل علم الكلام فألف موفق الدين ابن قدامة المقدسي كتاباً في ذم الكلام وأسماه (تحريم النظر في كتب أهل الكلام)، وصدرت فتاوى من بعض العلماء في هذا المجال تحرم فيها علم الكلام، وكان الإمام أبو الحسن الأشعري من أوائل الذين ردوا على دعوى الحنابلة في رسالة أسماها (استحسان الخوض في علم الكلام)، وتعرض فيه للرد على ما أثاره الحنابلة من ان علم الكلام من العلوم البدعية التي لم تحدث في عصر الرسول ﷺ، وإن مسائله لا مستند لها من النقل سوى أوهام العقل فثبت ان عدم ظهور علم الكلام في عصر النبي ﷺ ولا الصحابة الكرام، إنما كان بسبب عدم الحاجة إليه كما ان الحاجة إلى بعض العلوم لم تكن موجوده، ثم وجدت فيما بعد كما في علوم أصول الفقه ومسائل المواريث والعول،

---

[1] مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي: ص١١ .

وكذلك أحكام الحدود والنذور والوصايا والعتق والطلاق وغيرها، وأجاب بأن أصول مسائل علم الكلام موجودة في الكتاب والسنة، وأشار إلى أمثلة هذه المسائل منها مسائل ان للجسم نهاية، وإنه الجزء الذي لا ينقسم، فقوله (عز وجل): ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١)، إشارة إلى ان كل شيء موجود محدود لأنه من المحال إحصاء مالا نهاية له، وهكذا في مسائل أخرى ويعود على مخالفيه بالحجة بقوله: إن النبي ﷺ لم يصح عنه حديث في أن القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق فلم قلتم انه غير مخلوق؟ فإن قالوا: قاله بعض الصحابة وبعض التابعين قيل لهم يلزم الصحابي والتابعي ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً، إذ قال ما لم يقله النبي ﷺ فإن قال قائل أنا أتوقف لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، قيل له: أنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال لأن النبي ﷺ لم يقل: ان حدثت بعدي هذه الحادثة توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً، ولا قالوا ضللوا وكفروا من قال بخلقه أو بنفي خلقه..

وخبرونا لو قال قائل: علم الله مخلوق أكنتم تتوقفون فيه أم لا؟ فإن قالوا: لا قيل لهم لم يقل النبي ﷺ ولا أصحابه في ذلك شيئاً..)(٢)، وهكذا يأتي أبو الحسن الأشعري على مقالتهم في تحريم علم الكلام مسألة مسألة يرد عليها بالدليل العقلي المستند على النقل وعند التأمل في ظهور علم

---

(١) سورة يس: من الآية (١٢).

(٢) ينظر: مذاهب الإسلاميين/ م. س: ص٢٢ وما بعدها.

الكلام نجد أن هذا العلم ظهر بعد أن ظهرت الحاجة إليه، وفي البدايات كانت المناظرات تحدث بين المسلمين حول مسائل العقيدة أو ما يرتبط بها ولكن كعلم استقر فيما بعد، وقد أشارت بعض المصادر إلى ان واصل بن عطاء (ت١٣١) كان قد ألف بعض الرسائل في مسائل علم الكلام مثل كتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب التوحيد، والواقع إننا لا نكاد نعثر على استعمال الكلام بالمعنى الاصطلاحي ولقب المتكلمين قبل كتب الجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ)، وكان وقد عايش محنة خلق القرآن)[1].

[1] ينظر: مذاهب الإسلاميين: ص٣١-٣٢.

## المطلب الثاني: كلام الله تعالى رؤية كلامية فكرية

إن علم الكلام يرتبط بمسألة كلام الله تعالى ارتباطاً واضحاً لأنا إذا تأملنا في أسباب التسمية وجدنا ان اعتبار ارتباط التسمية بهذه المسالة له مبرراته القوية؛ لأن مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه وأكثر نزاعاً وجدالاً وخوضاً حول طبيعتها، وكانت سبباً في اضطهاد بعض العلماء كما ذكرنا، وحمل الأمة على الاعتقاد بها عندما تغلب المعتزلة في عصر المأمون وبعض الخلفاء العباسيين، ولهذه المسألة ارتباط بمسائل صفات الله تعالى وعلاقتها بالذات، وكذلك بالقرآن الكريم ولها ارتباط واضح في مسائل القضاء والقدر والإرادة والعلم، لذلك ثار حولها الكثير من الشبهات والمساجلات الكلامية، وكما ذكرنا (إن الأمة متفقة على إطلاق لفظ المتكلم على الله تعالى إلا ان هذا الاتفاق ليس إلا في اللفظ، وأما المعنى فغير متفق عليه)[1]، وقد نقلت كتب الكلام هذا الاتفاق على انه تعالى متكلم والدليل عليه: إجماع الأنبياء (عليهم السلام) فقد تواتر انهم كانوا يثبتون له الكلام سبحانه وتعالى.. وذهب العلماء مذاهب في تعريف كلام الله تعالى، ثم قال الحنابلة: كلامه حرف وصوت يقومان بذاته وانه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: الجلد والغلاف قديمان وهذا باطل بالضرورة .. وقالت المعتزلة: أصوات وحروف يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي وهو حادث، والأشاعرة قالوا: لا

(١) الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي: ص١٧ .

ننكر ما قاله المعتزلة لكنا نثبت أمراً وراء ذلك وهو المعنى القائم بالنفس ونزعم انه غير العبارات، إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام.. ونزعم انه قديم لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى)[1]، والمعروف كلام الله تعالى يقصد به عدة أمور:

١- القرآن الكريم والكتب السماوية كذلك. وهي كتب انزلها الله بلغات متعددة، وهذه المسألة احدى حجج الاشاعرة في مسألة الكلام النفسي.

٢- أمره ونهيه تعالى وكذلك خلقه بالكلمة الكونية (كن).

٣- إخباره ووحيه إلى الأنبياء عن حوادث التاريخ في الماضي واخباره عن المستقبل.

وذهب الامامية في مسألة الكلام مذهب المعتزلة، واتفقوا على انه تعالى متكلم بأدلة نقلية كما هو ثابت عند باقي المدارس الكلامية، ولأن الكلام (مقدور والله تعالى قادر على جميع المقدورات)، وقد ورد السمع بإطلاقه عليه فيكون متكلماً.. وخالفوا الأشاعرة في قولهم بقدم الكلام والقائم في النفس وهو مغاير للعلم والإرادة، ويعبر عنه بالحروف والأصوات التي يتألف منها الكلام المسموع.. إلى أن قالوا وهذا غير معقول مما ذكره الأشاعرة، وقالوا ان المعتزلة أنكروا قدم الكلام والمعنى الذي ذكره الأشاعرة، وجعلوا المتكلم هو الموجد لحروف وأصوات دالة

---

[1] ينظر: المواقف في علم الكلام، عضد الدين الايجي: ص٢٩٣-٢٩٤.

على المعاني الذهنية، أما في الأمر فعلى الطلب الذي هو الإرادة، وأما النهي فعلى طلب العدم وهو الكراهية وأما في الخبر فعلى معناه)[1]، وهذا يؤكد موافقتهم للمعتزلة وأساس المسألة انهم اختلفوا ان الكلام المؤلف من أصوات لابد أن يكون حادثاً وهم متفقون على ذلك باستثناء الحنابلة الذين قالوا بقدم الكلام سواء كان في الاصوات والحروف التي في القرآن الكريم أم في الكلام الذي كلم الله به الأنبياء السابقين والأخبار وكلمة الخلق في أمره كن فيكون.

واستدل الأشاعرة في إثبات صفة الكلام في ردهم على المعتزلة في قولهم انه متكلم (معناه انه موجد للكلام لا انه محل له فإنهم جوزوا قيام كلام الله بغيره، وقال الشريف الجرجاني في حواشي الكشاف يرد على الزمخشري المعتزلي: ان المتكلم على قاعدة اللغة في المشتقات كالمتحرك والأسود من قام به الكلام كما ان المتحرك من قامت به الحركة وليس من أوجد الحركة في غيره، وكذلك كالأسود لمن قام به السواد ليس لمن أوجد السواد في غيره.. وإن إضافة الكلام إلى موجده بكونه قاصداً معاني تلك الكلمات فأن هذا المعنى لازم في الأكثر بمعنى القيام - أي بالنفس - ومجرد الإيجاد لا يستلزم هذا المعنى.. وإن إيجاد العرض في محل لا يستلزم اتصاف الموجد به، فمن أوجد الحركة في جسم لا يتصف الموجد بأنه

---

(١) ينظر: كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد، للمحقق الطوسي والعلامة الحلي، تحقيق وتعليق الشيخ جسن مكي العاملي: ص١٩

متحرك.. فالكلام يضاف إلى المتكلم الذي قصد معناه.. وهذا المعنى هو القائم في النفس الذي يعبر عنه بالكلمات والحروف، وكذلك قد يفهم ان المتحرك من قام به الحركة لا من أوجدها، ولو صح ذلك لصح اتصافه تعالى بالاعراض المخلوقة له ولا يخفى ضعف هذا الرأي لاستحالة قيام الحوادث به)[1].

واتفق الامامية مع الجميع بان كلام الله الذي في القرآن الكريم حادث وهي مسألة متفق عليها بين جميع الفرق الا ان الامامية نفوا الكلام النفسي القديم، وقد وردت روايات عن الائمة (عليهم السلام)، تؤكد بام كلام الله حادث، فقد روى الصدوق عن كلام الله: (من زعم ان القرآن مخلوق بمعنى انه مكذوب فقد كفر، ومن قال انه غير مخلوق بمعنى انه غير مكذوب، فقد صدق ومن زعم انه غير مخلوق بمعنى انه غير محدث وغير منزل وغير محفوظ فقد أخطأ إلى أن قال: وقد أجمع أهل الإسلام على ان القرآن كلام الله (عز وجل) على الحقيقة دون المجاز)[2].

ولا نريد الإطالة في مسالة من مسائل تتعلق بصفات الله تعالى التي يعجز العقل الإحاطة بها واستيعاب مداخلها، ولكن كما ذكرنا ان جميع

---

(1) ينظر: مباحث الرؤية والكلام من عويصات علم الكلام، المولى تقي الدين ابن الخطيب زاده (ت٩٠١هـ)، دراسة وتحقيق موفق محمد عباس، رسالة ماجستير: ص٨٤ وما بعدها من النص المحقق.

(2) الاعتقادات للصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين ت٣٨١هـ، تحقيق مؤسسة الإمام الهادي (عليه السلام):ص١٥٦ من القسم المحقق.

العلماء متفقون على ان الكلام الذي هو الألفاظ مخلوق وعلى انه غير قائم بذاته سبحانه وتعالى باستثناء الحنابلة، فقد ذهبوا إلى ان هذه الحروف والأصوات قديمة بذاتها، وإنها هي المعني بصفة الكلام، وذهب جمهور العلماء إلى ان المعنى الذي هو مدلول العبارات اسمه الكلام النفسي وانه صفة زائدة على كل من صفتي العلم والإرادة، وإنه صفة قديمة قائمة بذاتها)[1].

وكل ما اثير حول هذه المسألة مرتبط بالخلاف بين الامام أحمد والمعتزلة في محنة خلق القرآن، وكما علمنا بأن المسالة لم تعد تقرأ كالقراءة التاريخية القديمة التي ترتب عليها الصراع والخلاف في المواقف، وتولد منها تلك الحوادث التي شكلت انتكاسة للفكر الإسلامي في عصر تحكمت فيه الخلافات السياسية، ووظف فيها الدين والفكر الإسلامي لممارسة تصفية الخصوم واقصاء الآخر المخالف، وانتصر فيها التعصب والانغلاق، وتوقف فيها الحوار والتكامل المعرفي وتعطل فيه العمل العقلي الذي انتعش في حركة علم الكلام في تقريره لمسائل العقيدة ودفاعه عن العقائد بالحجج العقلية العلمية التي ساهمت في إيقاف تداعيات شبهات أعداء الإسلام، وأثبتت ان هذا الدين هو دين العلم والدليل والبرهان.

---

(١) ينظر: كبرى اليقنيات الكونية/ م. س: ص١٠٤ .

وفي رواية ان امرأة من ترمذ سالت أبي حنيفة (رحمه الله): أين إلهك الذي تعبده؟ كأنها تريد التشكيك أو تدعي العلم فسكت أبو حنيفة ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج وقد وضع كتاباً فقال: إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال له رجل أرأيت قوله تعالى (وهو معكم)، قال هو كما تكتب للرجل أني معك وأنت عنه غائب، قال البيهقي: لقد أصاب أبو حنيفة فيما نفى عن الله وتأويل الآية)[1]. وشاهد هذا الرواية ان العقائد الدينية لا تصطدم بالمقررات العقلية، واذا اصطدمت نلجأ الى قانون التأويل لتحصين العقل من التشبيه والتعطيل.

## علم الكلام ودوره في الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات:

إن استقرار مصطلح علم الكلام مر بمراحل كما هو شأن بقية العلوم، ففي البداية كانت حركة الفكر تحفر في ذاكرة تاريخ العلوم مسارها (ولقد تكلم الناس وخاضوا في الكلام قبل أن يطلقوا على جملة المسائل التي صارت موضوعاً لنوع خاص من الخطاب اسم علم الكلام.. ولا نعرف بالتدقيق متى ظهر مصطلح (علم الكلام)، ويربطه الشهرستاني كما ربطه الأشعري بظهور الخلاف وكما هو معروف إن أول خلاف كان حول الخلافة، ومعلوم أيضاً ان هذا الخلاف كان ظرفياً، ثم

---

[1] ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن القيم (٧٥١هـ)، تحقيق رضوان جامع رضوان: ص١٠٩٥ . وقد ضعف ابن القيم هذه الرواية.

تراجع وفي عهد الإمام علي (عليه السلام) ظهر الخلاف على اتجاهين: أحدهما الاختلاف في الامامة، والثاني الاختلاف في الأصول.

أما الاختلاف في الامامة وهو أعظم (خلاف في الأمة) فقد انحصر في تيارين كبيرين، تيار يقول انها تثبت بالاتفاق والاختيار وهو رأي من سيعرفون بأهل السنة، وتيار يقول بالنص والتعيين وهو تيار من سيعرفون بالشيعة، أما الاختلاف في الأصول فيحدده الشهرستاني بـ آخر أيام الصحابة (أي ما يطابق عهد عبد الملك بن مروان على وجه التقريب)، ويربطه بظهور بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي، ويونس الأسواري في القول بالقدر.. ثم يوجز تطور هذا الخلاف مع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المؤسسين للاعتزال كمذهب، ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام، ويضعنا هذا النص الذي ذكره الشهرستاني في الملل والنحل أمام بداية الكلام وبداية الفلسفة.. والحق إن ظهور المتكلم وهو المثقف يومئذ لا يمكن أن يتم إلا بظهور الآراء المتعددة والمتنوعة المختلفة، لقد ظهر الكلام إذن مع ظهور الخلاف وتطور في إطار مذهب نضجت فيه المقالات، فارتفع إلى مستوى العلم أي أصبح قابلاً للتصنيف والتبويب والعرض المنظم ذلك بعد أن فك ارتباطه بالحاضر وارتفع بسياسة الماضي إلى مستوى العقيدة، وقد وافق ذلك ترجمة فلسفة اليونان وعلومهم فتزامن نضج مقالات المتكلمين

مع بداية انتشار أقاويل الفلاسفة، فقام جيل المتكلمين الجدد وهم المتكلمون المتفلسفون بدل الجيل القديم جيل اصحاب الرأي والمقالات، لقد ظهر الجيل الاول نتيجة انفصال القبيلة عن الاهتمام بمسائل العقيدة مع الأمويين، وظهر الجيل الثاني نتيجة اصطدام العقيدة الإسلامية مع العقائد الأخرى لأهل الملل والنحل المخالفة للإسلام، ثم ظهر الجيل الثالث مع انتشار المنطق والفلسفة، وتم تدشين مرحلة أخرى من تاريخ الكلام سماها ابن خلدون (طريقة المتأخرين)[1].

كانت مرحلة المتقدمين تتمثل بالتماهي مع النص وتتحرك في مجاله الدلالي، وتتأثر بالرواية وتتحرك بوجل من التمادي بالعقل والخروج على الثوابت التي حددها النص، وكانت كذلك تستلهم وتقتفي أثر التجربة الأولى للإسلام في جيل الصحابة، وتخشى الاسترسال مع الأفكار التي يثيرها العقل قبالة النص الديني، وعلى هذا الأساس تحكمت في الحياة الفكرية لعلماء الإسلام مفاهيم جعلت الرؤية السائدة تنظر إلى المستقبل رؤية متشائمة، وهي ان التجربة الإسلامية تسير نحو التراجع، وإن الجيل الأول والتجربة التي عايشها الصحابة هي أعظم ما وصل إليه الإنسان على الأرض، ولا يمكن تكرارها، وكما ذكرنا جعلت بعض النصوص الحديثية إطاراً مرجعياً لهذه الأفكار مثل حديث الفرقة الناجية وحديث

---

[1] ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، مقدمة، د. عابد الجابري/ عن المقدمة/ص٦٢.

خيرية القرون الأولى، كما ورد في حديث شريف قوله(ﷺ) (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[1]، وبناء على هيمنة هذه الأفكار على الحياة في العصور الإسلامية الأولى تم التعامل مع علم الكلام على انه كلام بدعي، ويؤدي إلى الفتن والخوض في مسائل لا نفع فيها وتحكم في الحياة الفكرية اتجاه النصوص والسلفية الفكرية. ومورست عمليات التعصب الفكري والصراع الايديولوجي بين الأفكار وتراجع العقل أمام دعاوى إتباع النقل، ويبدو ان هذا الاتجاه حافظ على ثوابت الدين أمام الغزو الثقافي الوافد إلى حدٍ ما، ولكن تراجع العمل العقلي وهيمنة الفكر الارثوذكسي - النصي - على الاتجاهات العامة كان مؤشراً سلبياً في عملية الانفتاح على العالم والفكر الإنساني والانطلاق بالمنظومة الفكرية الإسلامية نحو التبشير بعالمية الإسلامية وصلاحيته لكل زمان ومكان، الأمر الذي أدى إلى سكون الحركة الفكرية وكمون مفاعيل الفكر الإسلامي المرتبطة بالنص المتجدد بالتأويل والمعجز في صلاحيته وكفايته لحاجة الإنسان الفكرية على الأرض، وهو أمر أدى إلى ظهور تيارات متصارعة استهلكت الطاقة الفكرية على مسائل جانبية، وتخلت عن الريادة والإيجابية الحضارية في المشروع الفكري الإسلامي، ونشطت الحركات الباطنية والأفكار الفلسفية المستمدة من الأفكار الشاذة والطبيعة الهادية التي نشأت فيها الفلسفة اليونانية، وكان هذا تحدياً كبيراً

(١) صحيح مسلم، ج٢: ص١٧٦ و ١٧٨ .

واجهه علماء الإسلام الذين استدرجوا لمسائل الخلاف حول علاقة الصفات بالذات الإلهية ومسائل حرية الإرادة وغيرها من المسائل التي لم تكن تعبر عن حقيقة المشكلة التي كانت تواجه العالم الإسلامي، ونمو تيارات الفلسفات الغنوصية الهندية والفلسفة اليونانية والفلسفة الشرقية، وعقائد ونحل الأمم التي دخلت الإسلام دخولاً هامشياً أو مقصوداً لإثارة الشبهات، لتعبر عن صورة من صور الصراع الفكري بين الإسلام وأعداءه.

إن حركة الفكر الإسلامي التي ارتبطت بالفكر الكلامي حققت فاعليتها الفكرية عن طريق الاستقلال عن النظر السياسي وتخصصها في مجال النظر والتفكير(وتاريخ علم الكلام منظوراً إليه من زاوية تطور بناءه الداخلي هو في الحقيقة والواقع تاريخ التفكير النظري في الإسلام.. والنظر في الخطاب العربي الإسلامي في مقابل(العمل) باعتبار ان العمل هو مجال الشريعة والفقه.. وعلى هذا المستوى يمكن التمييز بين أربع لحظات في تاريخ علم الكلام تأخذ اسم الشخصية التي مثلتها وهي لحظة واصل بن عطاء ولحظة أبي الهذيل العلاف في مذهب المعتزلة، ولحظة أبي الحسن الأشعري، ثم لحظة فخر الدين الرازي في الأشعرية، ولحظة الرازي

ومتأخري الأشاعرة يطلق عليها ابن خلدون اسم (طريقة المتأخرين) تمييزاً لها عن طريقة المتقدمين)[1].

إن أهم ما يميز طريقة المتأخرين هي إغراقهم في توظيف الفلسفة والمنطق في مسائل علم الكلام على عكس طريقة المتقدمين، وتجمع كتب الفرق على ان أبا الهذيل العلاف (ت٢٣٥هـ) كان المنظم لمذهب المعتزلة، فهو شيخ المعتزلة ومقدم الطريقة والمناظر عليها كما يذكر الشهرستاني وفي فكره وعلى يديه ظهرت قضية دقيق الكلام بعد أن ألف كتاباً في الجوهر الفرد، وقد وظف المتكلمون آراءهم في الطبيعة وظواهرها بقصد الاستدلال على صحة آراءهم في جليل الكلام (الله وصفاته وأفعاله) كما وضحنا سابقاً، ودقيق الكلام شكل محور ما يسمى بفيزياء الكلام أو الفيزياء الكلامية)[2].

## دقيق الكلام:

استقر علم الكلام على طريقة المتأخرين، وتم توظيف المنطق والفلسفة للاستدلال على المسائل الكلامية، وشاعت مباحث الكلام حول الطبيعيات والوجود والعدم والإمكان والوجوب كل ذلك للتدليل على الذات الإلهية وصفاته العليا، وكانت مسألة الجزء الذي لا يتجزأ أو

---

(١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، م. س، مقدمة تحليلية عن المقدمة، عابد الجابري: ص١٥ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ص٢٠ .

الجوهر الفرد أول ما أثيرت في سياق الكلام في علم الله وقدرته، وفي هذا السياق ما استدل به أبو الهذيل العلاف على حدوث العالم.. بأن أشياء العالم قابلة للعد، وبما ان الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1]، فيجب أن تكون أشياء العالم عبارة عن أجزاء محصورة العدد وبالتالي محصورة التجزئة، فلما كان القديم عند أبي الهذيل ليس بذي نهاية ولا يجري عليه بعض ولا كل وجب أن يكون المحَدث ذا غاية ونهاية وأن له كلاً وجمعاً.

ودليله فيما يرويه الخياط: وجدت المحدثات ذات أبعاض وما كان كذلك فواجب أن يكون له كل وجميع، وبعبارة أخرى لما كانت أجزاء العالم عبارة عن أجزاء فإن لها كلاً.. بمعنى إن أي شيء في العالم يشكل كلاً فهو ذو أجزاء لأن الكل إنما هو كذلك لكونه مجموعة أجزاء واذن فجميع اشياء العالم عبارة عن أجزاء، ولكي تكون الأجزاء قابلة لأن يحيط بها علم الله وقابلة للعد وجب أن تكون متناهية ومحصورة العدد، الشيء الذي يستلزم وقوف التجزئة عند حد ما لا تتعداه وهو الجزء الذي لا يتجزأ.. غير إن فكرة الجزء الذي لا يتجزأ إذا صح انها أثيرت أول الأمر مع أبي الهذيل العلاف لإثبات إحاطة علم الله بكل شيء وقدرته على إبطال الاجتماع والاتصال في الأجسام حتى تصير أجزاء لا تتجزأ بحسب قول

---

[1] سورة الجن: من الآية (٢٨).

العلاف: إن الجسم يجوز أن يفرقه الله سبحانه ويبطل ما فيه من الاجتماع حتى يصير جزءً لا يتجزأ .. وسرعان ما وظفت هذه المسألة في القضية الأساسية في علم الكلام قضية (حدوث العالم) التي اتخذ منها المتكلمون مقدمتهم الضرورية لإثبات وجود الله ووحدانيته ومخالفته لكل المخلوقات.

وكانت طريقتهم في الاستدلال: إن العالم مؤلف من أجزاء، وهذه الأجزاء لا يمكن أن تتجزأ إلى مالا نهاية ولابد أن تقف فيها التجزئة عند حد معين لا يقبل التجزئة سموه بالجوهر الفرد)[1].

وإن علماء الكلام استدلوا بإن الله الذي يجمع الأجزاء التي لا تتجزأ فيؤلف من هذه الجواهر أجساماً واعراضاً تحل في مجموع الجواهر، وكل هذا يدل على الحدوث وإن إحداث هذه الظواهر مرتبط بواجب الوجود الله سبحانه وتعالى الذي له القدرة والعلم، وصفات الكمال التي يعرف بها خالق الوجود الله سبحانه وتعالى.

إن تطور مقالات الإسلاميين في دقيق الكلام وحد الخطاب في توظيف العلوم الطبيعية لإثبات الصانع واجب الوجود الخالق العظيم.. وكان توظيف دقيق الكلام يعبر عن إدراك عميق لطبيعة الوجود والخلق، وإن عمق الفكر في الكون يعمق الإيمان بالله ويوظف التطور العلمي

(١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة/ م. س، عن المقدمة: ص٢٢ .

لصالح الحقائق الإيمانية، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى تطبيق هذا المنهج.

إن العلوم الطبيعية تمدنا بتصورات أكثر رسوخاً وتثبت لنا ان الطبيعة ليست ركاماً عشوائياً مادياً شاغلة للفراغ، بل هي بناء وحوادث أو منهج منتظم من السلوك وهي في التعبير القرآني الرائع (سنن الله) أي كل شيء في الوجود خاضع للقوانين الإلهية، والطبيعة مركب حي دائم الحركة والنمو، ونموه ليست له حدود نهائية خارجية وحده الوحيد هو الذات الأزلية التي تبعث الحياة في الوحدة الكلية وتبقيها حية كما يقول القرآن الكريم: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[1]، وهذا الرأي يضفي على العلوم الطبيعية معنى روحياً جديداً.

فالعلم بالطبيعة هو العلم بسنة الله.. من هنا بدأ الفكر الكلامي في عملية ربط عميقة بين وجود المادة بوجود الخالق العظيم، وقال الكلاميون المعتزلة والأشاعرة والامامية إن الله يبدأ الخلق بالجوهر الفرد ثم يتكون من هذا الجوهر صور العالم المادي.. وإن الكلام في الجوهر الفرد بدأه علماء الكلام المسلمون وهو أول دليل على التمرد العقلي على مذهب أرسطو القائل بعالم ثابت، وأول من تكلم من مذهب البصرة في هذا الموضوع أبو هاشم الجبائي، وجاء بعده الباقلاني الأشعري الذي كان

---

[1] سورة النجم: الآية (٤٦).

أكثر علماء الكلام دقة وأعظمهم جرأة، ويذهب العالم الأمريكي ماكدونالد بأن الفلسفة اليونانية ليس فيها ما يشبه رأي المسلمين في الجوهر الفرد)[1]، إن دقيق الكلام والتعمق فيه سحب المسلمين من التفكير في القضايا الخلافية في حركة الفكر وهي مسألة التفكير في علاقة الصفات بالذات وغيرها من مسائل جليل الكلام، وعندما بدأ علماء الكلام في تعاطي مفردات دقيق الكلام توحد الخطاب عندهم، وبدأنا نقرأ فكراً كلامياً واحداً يتكلم به الأشعري والمعتزلي والامامي كلهم بدأوا يخضعون الفكر للحقائق التي صرح بها النقل وهي الإيمان بالله فقام هؤلاء بتوظيف المعرفة الطبيعية لخدمة المعرفة الدينية، ولاشك في ان المعتزلة عندما استندوا إلى القرآن الكريم والوحي، وعرضوا ما وجدوه في الوحي من فضاء معرفي مفتوح يستدرج الفكر واللغة للولوج إلى عالم الوجود أدركوا ضحالة الفكر الفلسفي اليوناني ذلك لأن الفلسفة انطلقت من العالم لتصل إلى الله وهو أمر استدرجها إلى توهمات في تصورات الفكر الفلسفي، لأنهم قاسوا الغائب الذي هو الله على الشاهد الذي هو العالم، وهو قياس باطل ولكن الكلاميين الإسلاميين وأولهم المعتزلة ابتدأوا طريقتهم من الله كحقيقة جاء بها الوحي لينطلقوا لمعرفة العالم، وبذلك كان هاجس تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات مسيطراً على فكر المعتزلة والامامية فيما بعد وهو الأمر الذي دعاهم لأنكار الكثير من المسائل في جليل الكلام خوفاً من التشبيه، وأول ما أنكروا أن تكون الصفات

(١) ينظر: تجديد التفكير الديني، د. محمد إقبال، ترجمة عباس محمود: ص٦٨. ٨٠.

قديمة، لأن ذلك بحسب منهجهم إثبات ذوات قديمة متعددة وأنكروا الرؤية - أي رؤية الله يوم القيامة - للأسباب نفسها، وأنكروا أن يكون كلام الله تعالى قديماً كذلك، وتخلوا عن قياس الغائب على الشاهد وشعروا بهبوط الفكر الفلسفي باتجاه المادة وأوهامها لما معهم من معارف بالنصوص الدينية التي رسمت مسار حركة الفكر في مسائل التصور حول الذات الإلهية، وفي المقابل كانت الاتجاهات الأصولية أو السلفية الحنبلية في الاتجاهات السنية والإخبارية في الاتجاهات الشيعية تحاول تعظيم الذات الإلهية في اتباعها للنصوص، ومع ان المسلك الفلسفي أكثر تحرراً من المسلك الكلامي بسبب تحدد الكلامي، بالنصوص ولذلك كانت الفلسفة مفتوحة في فضائها المعرفي لا يحددها إطار معين وليست محملة بمواقف مسبقة (إلا ان الاستنباطات التي يتوصل إليها عبر مسلك الفلسفة غالباً ما تكون عرضة لمنتجات الوهم المحدود الذي هو بالضرورة قاصر عن إدراك الحقائق الغيبية بحكم كونه منتمياً إلى عالم المادة والحس)[1]، إن النص ومقاصد الوحي جاءت بحقائق إيمانية تعزز استقرار الإنسان وتنمي روابط وأواصر التكامل المعرفي عن طريق نسبية المعرفة البشرية، ومع هذه المقاصد السامية للدين إلا ان مشكلات كثيرة واجهت حركة الفكر في التعامل مع النص ودلالات النصوص من هنا توقف الكثير من العلماء عن الخوض في متابعة حركة النص وسبر أغواره في مسائل الاعتقاد، وسلموا بظواهر الدلالات ووقفوا ضد اتجاهات

---

[1] دقيق الكلام، د. محمد باسل الطائي، عالم الكتب. بيروت: ص٣٣.

الفكر الكلامي بصورة عامة، وأعلنوا حملة مضادة لعلماء الكلام وكان ذلك بسبب الخوف من الانحراف في التصورات العقدية لمسائل جليل الكلام، واتهم علماء الكلام كما ذكرنا في البداية بسيل من التهم، لكن حركة الفكر واستفاضة النصوص بالدعوة إلى توظيف الفكر والنظر لمعرفة حقائق الدين وظهور الشبهات والبدع، كل ذلك دفع بعض العلماء للدفاع عن الفكر الكلامي وكتب الإمام الغزالي كتابه (الجام العوام عن علم الكلام) ليوضح حقيقة أساسية وهي ان علم الكلام كالدواء بالنسبة للمريض لابد أن يؤخذ عند الحاجة وبقدر معلوم، ويشير إلى ان ظهور البدع يؤكد الحاجة إلى علم الكلام مع ان هذا العلم لم يكن مألوفاً في العصر الأول (ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبغت جماعة لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى بدعته، كان هذا الاتجاه واضحاً في جليل الكلام، أما في دقيق الكلام فإن المسألة أخذت منحىً آخر وهو ان المعتزلة والامامية والأشاعرة وغيرهم عندما تداولوا مسائل علم الكلام بالطريقة الكلامية ابتداء من الوجود والعدم والحدوث والامكان والجوهر الفرد والعرض وغيرها من مسائل دقيق الكلام التي وحدت الخطاب في اثبات العقائد والدفاع عنها ضد الشبهات.

## المبحث الثاني: الفكر الإسلامي الحديث

### المطلب الاول: أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث.

إن تطور الفكر والوعي يرتبط بتطور مجالات الحياة المتنوعة وما حدث من تطور وثقافة جديدة يعد نقله نوعية في الحياة الإنسانية (ووفقاً لكلام العالم الأمريكي جوليوس روبرت أوبنهيمر مخترع القنبلة الهيدروجينية: إن الجنس البشري قد حقق تقدماً تكنولوجياً ومادياً في الأربعين سنة الماضية أكثر مما حققه خلال الأربعين قرناً الماضية، وفي مدى ٣٠ سنة قادمة سوف تستبدل تماماً المحركات ذات المكبس القديم بسفن تديرها الطاقة النووية ان اليوم الذي ستقوم به الكابلات الكهربائية تحت أرض الشوارع بتسيير السيارات الكهربائية على الطريق سيكون قريباً)[1].

ولكن هناك إجماع في الرأي على ان الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة، وهناك مؤشرات خطيرة على ان البشر اليوم يعانون من فقدان للتوازن النفسي بسبب ضغط الحياة كل هذه المؤثرات دخلت العالم الإسلامي بالاختيار أو الإكراه، وأدى هذا الاقتحام إلى شعور يتنامى بضرورة مواجهة التحديات الخطيرة، والعودة إلى الإيمان لأن العلم لا يمكن أن يحقق الاستقرار، وكما يذكر الشاعر السوفيتي فوزنستكي: (بأن

---

[1] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجو فتش: ص١٢٥ .

الكمبيوتر في المستقبل سيكون من الناحية النظرية قادراً على عمل كل شيء يقوم به الإنسان فيما عدا أمرين: أن يكون متديناً وأن يكتب شعراً)[1].

فالعلم لا يرقى بالإنسان ليجعله أفضل مما هو عليه أو أكثر حرية، إن العلم يجعل الإنسان أكثر قدرة وأكثر كفاءة.. وقد برهن التاريخ على ان الناس المتعلمين يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا ممارسين ودعاة إلى الشر، وربما يكونون أكثر كفاءة في هذا المجال من الشعوب المتخلفة، وهذا ما حصل فظهر الغرب المتعلم والمتطور تكنولوجياً أكثر بشاعة في تدمير الحياة واستغلال الشعوب المحرومة من التعلم .. من هنا ظهرت قضية الهوية والتمسك بها، ويحاول المفكرون المسلمون مواجهة هذه التحديات عن طريق العودة إلى الهوية الإسلامية.. وهنا ظهر دور الفكر الإسلامي في المحافظة على الأصول والتكيف مع المتغيرات والتحديات المعاصرة، وإثبات اصالة المشروع الإسلامي لإنقاذ الإنسانية التي تعاني من مشكلات بينوية مستديمة لا حل لها إلا بالرجوع إلى الإيمان، ولكن الفكر الإسلامي الحديث يواجه تحديات خطيرة داخلية وخارجية، ومن يمعن النظر في أوضاع المسلمين في العصر الراهن يجد أن التراجع المخيف في واقع المسلمين يهدد الأمة ويعصف بها في متاهات التقليد والضياع، ولعل أهم مظاهر التراجع يمكن تحديدها بما يأتي:

---

(1) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفتش: ص٧٩ .

١. البعد عن هداية القرآن والانشغال بظاهرية لفظية أكثر من تحقيق منهج القرآن في بناء الأمة وحال الأمة كمن يزين القرآن بالخطوط والجلد والتذهيب، ويعتز بهذه الأمور وهو في حياته نموذج في إهمال فاعلية القرآن في الحياة ومراعاة السنن التي بيّنها الكتاب الكريم الذي فيه خارطة طريق واضحة المعالم لرحلة الإنسان على الأرض.

٢. إهمال دراسة السنة النبوية الشريفة ورموز الأمة الذين شكلوا النموذج للاقتداء مثل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وكبار الصحابة الكرام، والتحقيق في البرنامج الحضاري الذي بنى به رسول الله ﷺ أمة الإسلام التي واجهت الحضارة المادية المعاصرة وإزاحتها في مدة قصيرة من الزمن، ولعل أهم قضية في دلالة السنة هي تطبيق تعاليم القرآن الكريم في الواقع، وبناء حضارة إسلامية قائمة على التعدد والتعاون والتعايش، ولقد نجح رسول الله ﷺ في هذا المشروع حتى ان المستشرق مايكل هارت عندما كتب كتابه المائة الأول وضع محمداً ﷺ أول المئة لأنه (عليه الصلاة والسلام) ترك أثراً على العالم لن يمحى وفي مدة قصيرة تعد معجزة.

٣. التعصب المذهبي والفرقي الذي يهدد الجهود ويستنزف الطاقات على مسائل جزئية ويتجاهل الرؤية الكلية للإسلام التي يفتقد إليها العالم اليوم بفلسفته المادية والالحادية، وقد أثر هذا التعصب حتى فرق وحدة الأمة وحولها إلى أجزاء مشتتة ومتصارعة.

٤. غياب الإيمان بالعقيدة الإسلامية التي تشكل الدافع الأساس في بناء حضارة إنسانية؛ لأن غياب الإيمان بالله يؤدي إلى نزعات مادية وإلحادية تساعد على ظهور الأمراض الاجتماعية وتدمر الأسرة والمجتمع.

٥. غياب معالم طريق الإسلام الحق الذي يعتمد على الجمع بين العقل والنقل ومهتدي بالدليل والبرهان الأمر الذي أدى إلى ظهور البدع والأهواء والخرافات ومظاهر الشرك لدى الكثير من المسلمين، يضاف إلى ذلك ظهور النزعة الدنيوية التي عمقت التحاسد والتباغض، وجذرت الكراهية والتعصب على حساب التسامح والتعايش الذي شكل الهوية الإنسانية للمجتمع المسلم في عصره الذهبي.

٦. ظهور موجة من الإعجاب بالغرب والحياة المادية الغربية ومظاهر التكنولوجيا الأمر الذي ساعد على استنساخ النظم الغربية والمطالبة بتفعيلها في الحياة الإسلامية.

٧. ظهور الحركة الاستعمارية الغربية والقوى الكبرى في العالم مع مظاهر الغزو العسكري ومحاولة إخضاع العالم الإسلامي إلى الهيمنة الغربية والاستئثار بثرواته والسيطرة على منابع الطاقة ومنابع النفط في العالم الإسلامي[1].

---

(١) ينظر: قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محسن عبد الحميد: ص٨٥ وما بعدها.

كل هذه العوامل والمظاهر حفزت المصلحين من المفكرين المسلمين إلى البحث عن مشروع لإنقاذ الأمة، وبسبب التحديات المعاصرة ظهرت الحاجة إلى تجديد في الخطاب الإسلامي والتكيف مع التطورات الثقافية والوعي العام في العالم مع المحافظة على الأصول والهوية الإسلامية.

## أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث:

مما تقدم يمكننا أن نوجز أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث بما يأتي:

١. انتشار الجهل والتخلف في الأمة دفع بعض العلماء إلى تبني مشروع الإصلاح الواقع المتراجع في الأمة واعتمد المشروع الإصلاحي عليّ الأصول الإسلامية من الكتاب والسنة وتحقيق المصالح المعتبرة.

٢. ظهور الحركة الاستعمارية التي حاولت إخضاع العالم الإسلامي إلى الغرب والهيمنة على مقدرات العالم الإسلامي. وثرواته الاقتصادية واستغلاله لصالح النظام العالمي الاميريالي مما دفع العلماء المسلمين إلى النهوض المواجهة هذا التحدي.

٣. حركة النهضة الأوربية التي حققت تقدماً وتطوراً في مجال العلوم الطبيعية الأمر الذي حفز علماء الإسلام للمناداة بمشروع نهضة يحقق تطوراً كما حقق علماء الغرب.

## المطلب الثاني: الفكر الإسلامي الحديث التحدي والاستجابة

### أولاً: التعددية والتعايش في الفكر الاسلامي.

التغيرات التي حدثت في العالم العربي والإسلامي أفرزت واقعاً تنيرت فيه الكثير من المفاهيم، وظهرت تيارات تشكل في الواقع نسبة مؤثرة، وهذه التيارات لا تؤمن بما يؤمن به التيار الإسلامي التقليدي، فهي لا تؤمن بالكثير من القضايا التي يؤمن بها الإسلام السياسي، بل انها تطالب بإقصاء المشروع السياسي في الإسلام، وتدعو إلى العلمانية أو المدنية أو الديمقراطية وغيرها من المصطلحات التي لم يعهدها الفكر الإسلامي في تاريخه مع ان هذه التيارات تدعي الإيمان بالله والإسلام.

من هنا وجد الفكر الإسلامي انه يواجه تحديات تؤدي إلى الاصطدام وبالتالي تحدث مفاسد كبرى، وتبلور اتجاهٌ اجتماعيٌ يكره الإسلام أو يشيع الكراهية، ومن هنا تحدث الفتنة، وعلى هذا الأساس وجد بعض المفكرين الإسلاميين ان المرونة التي في الإسلام ورعايته للمصالح توجب على الإسلاميين القبول بالحلول الوسط، ووضعوا بعض الأسس للتعايش، والقبول بالآخر من أجل مصالح كبرى ودفعاً لفتن كبرى، ومن هذه الأسس الفكرية:

١. إن الإسلام دين دعوة وهداية وأساس عمله قبول الآخر له فإن لم يقبله فلا إكراه في حمله عليه قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[١]، وعلى هذا الأساس فإن استخدام العنف في فرض الإسلام لم يعهده المسلمون على اختلاف عهودهم، وما يفسره البعض من أن الجهاد يفرض على المسلمين مقاتلة الكافرين، فهذا اقتطاع للنصوص وأعمالها في غير مناسبتها، ثم ان الدعوة في مكة أو المدينة لم تمارس الإكراه على الناس، وان ما ينقل من الأخبار عن معارك المسلمين فهي في سياق نشر الدعوة بشكل استثنائي وليس أصلاً، فالعنف كان ملازماً للمعارك والمعارك حدثت بعد تكون الدولة والقوة في الإسلام، ثم ان المتفق عليه ان الإسلام انتشر في جنوب شرق آسيا والهند عن طريق التجار وليس عن طريق السيف والمعارك، كل ذلك يؤكد على أن الأصل في الإسلام الدعوة بالحسنى أو التي هي أحسن، كما أكد على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[٢] ولن تكون الحروب وإراقة الدماء هي الحسنى، وعلى هذا لابد أن تجنب المجتمعات الإسلامية العنف.

٢. إن الاعتراف بالآخر هو شرط قاعدة التعايش فالذي لا تعترف به هو أيضاً ليس مستعداً أن يعترف بك، والمحصلة هي الخصام والتصادم، وفي هذه الحالة ستجد القوى المعادية للمسلمين الفرصة مناسبة لبث

---

[١] سورة البقرة: من الآية (٢٥٦).

[٢] سورة المؤمنون: من الآية (٩٦).

الفرقة وتجذير الصراع وإشاعة الكراهية بين مكونات المجتمع، ثم إن العالم اليوم تحول إلى قرية صغيرة والقوى الكبرى التي تهيمن على العالم والإعلام سوف تدعم كل صوت للأقليات والمعارضين للخيار الإسلامي، فأصبح الفكر الإسلامي محصوراً بين خيارين، أما تفكيك المجتمع وتدميره بالعنف والصراع أو القبول بالتعددية والتعايش مع الآخر، وفي الأولى مفسدة عظمى، وفي الثانية مصلحة ضرورية للمحافظة على الحياة والبقاء، فالتعددية فرضت نفسها، ومن شروطها أن يعترف كل طرف بالآخر من غير مصادرة رأي ولا محاربة موقف، وأن يكون الاحترام والتعايش والثقة هو القاعدة الأساس، وهذا جزء من أمن المجتمع الذي بدونه يتعذر استمرار الحياة قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1]، ثم ان التعددية تعني الحرية، وهي مبدأ أساس من مبادىء الإسلام ولا قيمة للفكر ولا للإنسانية بلا حرية، وإن العالم الإسلامي منذ أن وجد إلى الوقت الحاضر فيه أديان ومذاهب وأعراق مختلفة وعليه فإن صبغ الحياة بلون واحد من التفكير يعد ضرباً من ضروب الوهم وهو مخالف للفطرة التي خلق الله الناس عليها.

٣. إن المصالح العليا لأي بلد أو مجتمع لابد أن تكون أساساً في بناء مشروع حضاري وبدون الاتفاق على هذه المصالح فإنه يتعذر قيام

---

(١) سورة قريش: الآيات (٣، ٤).

كيان أو بناء دولة، ومن هذه المصالح الاستراتيجية هي وحدة الأمة والحفاظ على أمنها واستقرارها وتنمية الثروات والاستقلال ورفض التبعية والتمسك بالإجماع العام الذي يحافظ على وحدة البلد، ويعزز المواطنة وينمي روح الوحدة والأخوة والتسامح، وهذه المصالح العليا والمحافظة عليها يكون عن طريق التعددية والإيمان بها وزرع الثقة بين المكونات والعدالة في تعامل المركز مع المكونات مهما كان حجمها، فالأكثرية في ظل الوعي الصحيح هي التي تحافظ على حقوق الأقليات وتدافع عنها.

٤. إن التعددية التي يؤمن بها الفكر الإسلامي هي تعددية برامج ومشاريع التي من شأنها أن تساهم في تطور الإصلاح الاجتماعي وفي التاريخ الإسلامي شواهد على اعتماد الدولة الإسلامية على كفاءات من ديانات أخرى، فكان من الأطباء من اليهود والمسيح، وكذلك أدى المسيحيون في العالم الإسلامي دوراً مهماً في عملية ترجمة الكتب في الفلسفة والطب والعلوم الأخرى من السريانية إلى العربية، وهذه هي تعددية الكفاءات التي لا تسأل عن المعتقد أو المذهب وإنما على الكفاءة والعلم، وكثيراً ما كنا نقرأ في التاريخ أن كاتب الخليفة أو مستشاره كان من أتباع الديانة المسيحية أو اليهودية، ومن المؤسف أن نجد أن الغرب اليوم يستقبل الكفاءات من بلاد المسلمين ويوفر لهم مجال الإبداع والتطور العلمي والعيش الآمن الذي يفتقده العالم الإسلامي الذي أصبح مركز طرد للطاقات والكفاءات بسبب الخوف

من الاستبداد سواء السياسي أم المذهبي أو بسبب غياب سلطة القانون وضعف الإيمان في النفوس الأمر الذي أشاع الظلم وضياع الحقوق، وكذلك هناك تعددية في داخل البناء الإسلامي فلا يوجد اتجاه واحد في المجتمع الإسلامي، فهناك اتجاه اخباري عند الشيعة يؤمن باتباع الرواية ويرفض الرأي والعقل ويقدس الرواية، وكذلك هناك اتجاه أصولي عند الشيعة يؤمن بالرأي وحركة العقل، وكذلك هناك اتجاه سلفي عند السنة يؤمن بالرواية ويقدمها على العقل، وهناك اتجاه عقلاني، وكذلك هناك من يولي الاهتمام للمسألة الاجتماعية والتربوية والروحية وآخر للمسألة السياسية وآخر يولي الاهتمام لمسألة حقوق المرأة وهكذا في قضايا التنمية والعمل الثقافي والتعليم وما إلى ذلك، والتعددية بهذا النمط تعكس تنوعاً وتخصصاً وتكاملاً يعبر عن حالة حضارية متقدمة تدفع بالمجتمع نحو مزيد من التطور والنمو والنهوض)[1].

(١) ينظر: الفكر الإسلامي قراءة ومراجعات، زكي الميلاد: ص٣١، وفي الكتاب المزيد من الآراء في الفكر المعاصر.

## حماية الاسلام للحقوق الفكرية:

قبل بيان موقف الإسلام من الحقوق الفكرية لا بد من بيانها وبتعبير بسيط هي: (الناتج الذهني مما يدخل في معنى الملكية كما يدخل في معنى الحق، وهو نوع خاص من الحقوق والأملاك والأموال التي اعتبرها الشارع، حيث أن كل نتاج ذهني إنما يرتبط بصاحبه ويتأثر به، ولصاحبه حق ملكيته والانتفاع به، وصاحبه مجزي عليه بالخير إن كان خيراً وبالسوء إن كان شراً أو سوءاً. ولهذا النوع من الملك خصائصه الذاتية المميزة له عن غيره من المملوكات بحسب طبيعة محله ومجاله ومضمونه)[1].

وبعد ان عرفنا معنى الحقوق الفكرية نجد أن من الأمور التي أولها الإسلام أهمية كبيرة هي احترامه للحقوق، وهنا لم يحصره في شيء معين، وانما جميع الحقوق خاضعة لمبدأ الحماية، فلا يجيز الإسلام الاعتداء على اي حق سواء كان مادي أو معنوي، ومن الأمور التي حرص عليها الاسلام الحقوق الفكرية، ولذا قال بعض العلماء في مسألة الحقوق الفكرية: ان المعلومة مباحة والصيغة حق، فلا يجوز لاحد أن يعتدي على صيغة ما في علم ما ويدعي ان هذه المعلوم قام هو بنشرها.

---

[1] مجلة العلوم الإسلامية: مفهوم حقوق الملكية الفكرية: وضوابطها في الإسلام: الدكتور إحسان سماره ص ٣٠.

واستدلوا على حماية الإسلام للحقوق من خلال القاعدة الفقهية المشهورة(لا ضرر ولا ضرار) المستوحاة من حديث الرسول الكريم، وبعض المذاهب استفادت من المصالح المرسلة .

## مشروع التقريب بين المذاهب الاسلامية:

انطلاقا من شعار قوتنا في وحدتنا نجد ان الامة اليوم في امس الحاجة الى وحدة الصف، والوقوف في خندق واحد لصد الهجمات الغربية على الاسلام، وهذا لا يتحقق ما لم نلم شعثنا ونعيد امجاد اجدادنا، وهذا لا يكون الا من خلال تبني فكرة التقريب بين المذاهب، لان التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية يحقق الوحدة الاسلامية من خلال تعرف بعضهم على البعض الآخر عن طريق تحقيق التآلف والأخوّة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة. إذ يحاول هذا المشروع تحقيق الوحدة الإسلامية والتي تعني: التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة واتخاذ موقف موحد من أجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد تجاه اعدائها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

وكان خير مثال على الواقع التطبيقي هو انشاء المجمع العالمي للتقريب والذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية

من مختلف دول العالم أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة، ويهدف المجمع الى النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتماءاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة.

ومن خلال الوقوف على تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية نستطيع ان نبين مدى اهمية هذا المشروع إذ يسعى الى تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات العشر القادمة:

١. السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.

٢. توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.

٣. تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.

٤. اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين أتباع المذاهب اليوم.

**اما مجالات التقارب:**

فتشمل جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة، إذ يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

**العقائد:**

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية، والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية، والانطلاق من الامور المشتركة التي لا يختلف فيها مُسلم.

**الفقه وقواعده:**

ان الفقه ميدان رحب، وان كل المذاهب قائمة على مبدأ الاجتهاد، وان كل مذهب يعتمد في استنباطه على اصول مشتركة مثل الكتاب والسنة، كذلك الفروع ووفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة، والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مردّه إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم، علما ان الاختلاف في بعض المسائل الفرعية واقع في داخل المذهب الواحد فلا يكون الاختلاف في الاستنباط نقطة خلاف بين الامة.

## الأخلاق والثقافة الإسلامية:

ان الموروث الاخلاقي الذي تركه الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وآل البيت والسلف الصالح لحق للامة ان تفتخر به وتنطلق منه لبناء حضارة انسانية رائعة، وليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الاخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد الفردي والاجتماعي والرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) أسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

## التاريخ:

ولا ريب أن المسلمين يتفقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول الى موارد كثيرة للاتفاق، وعلى أي حال فيجب أن لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للأمة.

## المواقف السياسية للأمة الإسلامية:

لا شك أن المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كأنهم بنيان مرصوص. علماً أن سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في أي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

أما المبادئ والقيم التي ينطلق منها في منهجه الإصلاحي وتنفيذ برامجه انطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم أدناه:

١. ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.

٢. ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.

٣. تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة.. علينا كمسلمين يقبلون بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة أن نقبل مستلزمات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الرأي الإجتهادي خطأ في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.

كما لا ينبغي لأحد من جانب آخر أن يكفّر الآخر بسبب لوازم حديثه أو رأيه تقود حسب رأينا إلى إنكار أصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.

٤. التعامل باحترام عند الاختلاف.. حينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الديني في علاقاته مع باقي الأديان ويطلب من المسلمين أن لايسيئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية الباطلة للآخرين؛ فإن من الأولى أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم الآخر فيما يختلفون فيه.

٥. حرية اختيار المذهب.. إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات أن تفرض على أحد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً.

٦. حرية العمل بالأحكام الشخصية.. فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمور الشخصية، فإن أتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.

٧. استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[1]، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.

٨. لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

---

[1] سورة الزمر/ الآية (١٧)

## الاتجاهات المتطرفة التكفيرية:

ظهر في العالم الاسلامي اتجاهات متطرفة انحازت إلى النص الديني ظاهريا ورفضت الاندماج والتحاور والتعايش مع المجتمع وآمنت بالعنف طريقاً لتحقيق أفكارها وما تؤمن به وكان من أهم ما يميزها، هو إنكفائها على ذاتها وانغلاقها على نفسها وانعزالها عن الواقعين، الواقع الإسلامي والواقع الأوربي، بسبب توقفها في صحة إسلام الأول، وتصريحها عن كفر الواقع الثاني؛ لذا تجد أن نشاطاتها تتركز في نطاقات محدودة، مبهمة وغير معروفة.

وكيفما يكن الأمر فإن هذه المؤسسات، استغلت المشروعية القانونية التي منحتها الحكومات الأوربية لها، وساعدتها في فتْحها، وكان جزاء القائمين عليها لتلك الحكومات(جزاء سنمار) حيث اتخذتها غطاءا لترويج الإرهاب والتطرف، والتخطيط للعمليات الإرهابية في البلاد، التي منحتهم حق إقامة وفتح مراكزهم ومؤسساتهم، وسعت الى تنفيذها فيها وفي غيرها من الدول الأوربية، وأصبحت موضع تهديد لأمنها القومي وأمن شعوبها.

لذا فقد كان من نتيجة التطرف التي اتخذت منه هذه المؤسسات شعارا ومن الإرهاب دثارا، أن حوربت في تلك الدول، وطُردت منها حتى إذا ضاقت السبل على أربابها، عادت لتنَفذ مآربها في بلادها.

ويواجه التطرف الديني والاتجاه الذي أتى بالعنف المجتمعات الاسلامية أكثر من غيرها فهو يتصور بان المجتمعات الاسلامية غالبيتها مرتدة ويجب أن يقام عليها الحد فالمجتمع الاسلامي أمامه خياران أما متابعة هذا الاتجاه أو الموت والقمع، من هنا شكلت هذه الظاهرة تهديداً للفكر الإسلامي.

## اثر الاتجاهات المعاصرة في الفكر الاسلامي

### اولاً: العولمة.

من المفاهيم الحديثة التي أخذت حيزا واسعا من الفكر الإنساني المعاصر هو مفهوم العولمة، التي يرجع تاريخ ظهوره في الساحة الفكرية والثقافية، الى أكثر من عقد من الزمان، ويذهب بعض علماء التاريخ الى أن العولمة - كظاهرة وليس كمفهوم - ترجع الى بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وتهدف الى انتشار المعلومات بين الناس، على النحو الذي تكون من خلاله متاحة للجميع، وإزالة الحواجز والحدود بين البلدان، وزيادة نسب التشابه بين الجامعات والمجتمعات وسائر المؤسسات.

بالتالي فالعالم ضمن معطيات العولمة هو بمثابة قرية صغيرة متوحدة و متجانسة نتيجة لسرعة الأتصالات و الإعلام الاكترونى وصراع تملك الفضاء.

فالعولمة إذن تهدف الى توحيد المجتمعات بنظام واحد قائم على الإقتصاد والتطور التكنواوجي والتوجه المعرفي والفكري.

وشخَص بعضهم العولمة على أنها هناك ثورة علمية تكنولوجية و اجتماعية تغطي العالم بشبكة من المواصلات الاتصالات خلفت أنماطا جديدة من القيم الإجتماعية والمفاهيم السلوكية، التي يؤهلها، لان تكون ذات وجود مؤثر في مختلف جوانب الحياة الإنسانية.

ومع كل ما يبدو للعولمة من أسباب الجذب والإقناع، لكنها لن تنجح في الحيلولة، دون استمرار التقسيم والتميز المفروض على الواقع العالمي، وأعني به عالم الدول الكبرى ذات المصالح المتبادلة والمؤسسات العملاقة، وعالم الدول النامية، التي يبدو أنها ستظل تعاني من التبعية للدول الكبرى، حتى في ظل انتشار مفهوم العولمة، ولعل هذا ما دفع البعض الى فهمها، فهما يتناغم والتقسيم الدولي القائم على أساس عالم القوى؛ فهناك العالم الكبير وهناك العالم الصغير، وأن العالم الكبير في ضوء الفهم المذكور يبقى مهيمنا في فرْض كل قيمه وثقافته وأخلاقه ونظمه الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، فهي إذن تبعية من نوع جديد، تحتفظ للدول الكبرى بمكانتها، وتدفع بالدول الصغرى نحو لون جديد من التبعية. وبناء على ذلك في تصور هؤلاء وما يسوق له الغرب خصوصاً بعدما كتب صموئيل هنتكتن كتابه صدام الحضارات، فان الصدام قادم لا محالة بين

الحضارة الغربية وحضارتين أو ثلاث في طريق الصعود وهي الحضارة الصينية والحضارة العربية الإسلامية وكذلك عندما كتب فوكو ياما كتابه (الرجل الاخير) وبحسب تصوره سيكون الرجل الأبيض هو أخر الرجال الذين ينتمون عرقيا وحضاريا إلى الحضارة الغربية هو الرجل الأخير وكذلك الممارسات التي يحذر منها علماء الطبيعة من أن العولمة ستؤدي إلى اختلال بالتوازن البيئي نتيجة العدوان على البيئة من قبل دول المركز الصناعية التي تقود العالم إلى المجهول والكارثة: كل ذلك عمق مشاعر الكراهية والعداء للعولمة، وفي العالم الإسلامي الذي كان هو المستهدف الرئيس من العولمة ظهرت اتجاهات تحذر من الظاهرة وتعدها تحدياً وجودياً وتهديداً خطيراً تجاه العالم الإسلامي ومع ذلك ظهر في العالم الإسلامي من ينادي بالاستفادة من تسهيلات العولمة وتحول العالم إلى قرية صغيرة، فالعولمة ليست شراً محضاً ولكن باستطاعتنا ان نتعامل معها ونوظف الجوانب الايجابية فيها لمصلحة التطور العلمي في بلاد المسلمين مع المحافظة على الهوية الإسلامية والخصوصية العقدية، لذلك هؤلاء يعدون المشكلة في العولمة هي في المتلقي أو الاستجابة للعولمة فمنهم من انخرط فيها وذاب في حركتها وفقد ثقافته وهويته ومنهم من حافظ على هويته وقيمه ووظف التطور العلمي والتكنولوجي لمصلحة بلاده ومجتمعه، وبناء على ذلك واجه الفكر الإسلامي تحدياً جديداً متمثلاً بالعولمة هل يواجهها ويحاربها؟ أم يقبلها بكل ما فيها؟ أم يقف موقفاً انتقائيا يأخذ ما ينفعه ويتجاوز مشكلاتها

ونقاط مخالفتها للقيم الإسلامية؟ أكثر الإسلاميين يؤيدون الموقف الثالث وقلة انحازت إلى الموقف الأول وهو مواجهة العولمة والتصدي لها! واتهم الذين قبلوا بها بأنهم منافقين وخارجين على القيم الإسلامية ومعظم هؤلاء المؤيدين للعولمة كانوا من الذين آمنوا بالخيار الغربي وهو العلمانية وأعلنوا موقفهم بصراحة بأنهم لا يؤمنون بتدخل الدين في السياسة والحكم.

ولكي تكون الصورة واضحة جلية لنا لابد،بعد بيان مفهوم العولمة،من التطرق الى أهدافها التي يمكن تلخيصها كالآتي:

١. يكون السوق التجاري مفتوحا موحدا بين كل دول العالم من غير فواصل أو عوازل جمركية أو إدارية أو نحوها.

٢. توحيد العالم بحيث يكون كتلة واحدة من حيث المصالح والمنافع ودرء الأخطار التي تهدد الأمن والإستقرار العالمي.

٣. تشكيل نوع من التجانس العالمي المبني على التنوع والتعدد، والسعي للإرتقاء بحياة الإنسان.

٤. توجيه الطاقات نحو إيجاد لغة واحدة مشتركة، يتم استخدامها سواء على مستوى البشر، على مستوى الآليات الألكترونية.

٥. تحقيق الوصول الى وحدة إنسانية تهدف الى تعميق الإحساس بوحدة البشر ووحدة الحقوق.

٦. إزالة كل أشكال التعصب والتمييز العنصري، من أجل الوصول الى عالم انساني موحد تذوب معه كل أنواع الفوارق. وهذا الرأي يبنى على رؤية إيجابية للعولمة عند بعض المفكرين المسلمين.

والذي يهمنا في المقام هو العولمة الفكرية، التي - وفي ظل المعطيات الماره آنفا في مفهوم العولمة - فإنها ستضع الفكر الإسلامي في موضع الإختبار والمواجهة ؛لان عملية الإنصهار الكبرى - التي سيواجهها العالم، في ظل العولمة المفترضة -

ستجعل - الفكر الإسلامي - فكرا مضمحلا، وضائعا في منظومة الأفكار العالمية، فتضيع معها الملامح المميزة لهذا الفكر، وربما سيزحف الضياع ليستوعب ثوابت الشريعة، التي تشكِل المنهل الأساس للمنظومة الفكرية الإسلامية.

## ثانياً: الديمقراطية والفكر الإسلامي.

من النظم التي وفدت إلى العالم الإسلامي من الغرب هي الديمقراطية، وهي نظام سياسي (يعني حكم الشعب نفسه بنفسه)[1]، وعندما جاءت الديمقراطية كان الواقع الإسلامي يعاني التخلف والتراجع في ميادين الحياة كافة فتولد شعور في العقل الثقافي الإسلامي مفاده إن

---

[1] الأمة هي الأصل، د. احمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث: ص٣٢ .

النظم الغربية هي النظم التي تحقق تطوراً وتنمية والاصلاح الذي تطلبهُ الحركات الاصلاحية يتحقق عن طريق استنساخ التجربة الغربية في فلسفة الحكم يضاف إلى ذلك انتشار ظاهرة الاستبداد السياسي في النظم السياسية العربية أو الإسلامية التي رفعت من شأن الحاكم وأعطته منزلة التقديس، كل هذه الأسباب وأسباب أخرى أدى إلى اقتناع طبقة من المثقفين في البلاد العربية بالإيمان بالديمقراطية الغربية، ولعل من أهم مبادئها:

١. الشعب هو المرجع في الحكم وصناديق الاقتراع هي المرجع في شرعية الحاكم ولا توجد سلطة أعلى من سلطة الشعب.

٢. إن الأغلبية تتمتع بامتياز يؤهلها إدارة الحكم والهيمنة على صناعة القرار على أن تكون هذه الأغلبية هي سياسية وليست دينية أو مذهبية؛ لأن ذلك من شأنه تأجيج الصراع والتنافس على السلطة.

٣. الفصل بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، وهو أمر مهم في النظام الديمقراطي، وبناء على هذه المبادئ حاول الفكر الإسلامي التكيف معها، وأعطى تأصيلاً شرعياً لحكم الشعب عن طريق مبدأ الشورى وإن كان النظام السياسي في الإسلام تتنازعه اتجاهات حول الشورى فمنهم من يقول بأن الشورى ملزمة وفريق آخر يقول بأن الشورى معلمة أي لا

تقتضي الإلزام للحاكم بأن ينزل على رأي الشعب ولكن عليه الاستئناس به.

والمعروف من تاريخ التشريع في الفقه الإسلامي بأن المجتمع الإسلامي محكوم بمبدأين في المرجعية الشرعية وهما النص أو الوحي، والعقل أي الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفي حديث معاذ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وسأله بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو!)[1]، وفي هذا الحديث تأصيل لمسألة الاجتهاد وللحق فإن النص هو الأساس ولكن مع النص تبرز مشكلات منها ثبوت النص ودلالته وتفسيره والكثير من المسائل الفقهية مثل تحقيق المناط وتنقيحه في استخراج العلة، وهنا يكون الاجتهاد والاختلاف أمراً لا يمكن تجنبه، فعلى هذا ينفتح باب للتوسعة والتكامل المعرفي وتحقيق مصالح المجتمع كمؤثرات فاعلة في التكيف مع الواقع المتغير والمحافظة على الهوية الإسلامية أي المحافظة على الأصول مع المعاصرة والتعامل مع الواقع، ولذلك نجد ان فلسفة التشريع الإسلامي مرنة ومنفتحة على الواقع وتعتمد على منهجية التيسير ورفع الحرج وتبتعد عن التشديد والتضييق، وعلى هذا الأساس بنيت القاعدة

---

(1) الحديث مشهور وورد بلفظ مقارب في سنن أبي داود والترمذي، وان معناه صحيح ولو ضعفه بعض أهل الحديث وقد اعتمده الكثير من الفقهاء والأصوليين، ملتقى أهل الحديث، الشبكة العنكبوتية.

الفقهية (إذا ضاق الأمر اتسع)[1] من هنا كان أكثر الأحكام مرتبطة بالاجتهاد والنظر؛ لأن النصوص محدودة والحوادث غير محدودة، واعتمدت عملية التشريع على المشاركة والشورى حتى بين القضاة والحكام الذين يكونون أقرب إلى مقاصد الشرع والدين، وعلى ذلك ترسخت الشورى في التأصيل الشرعي عند جميع المدارس والمذاهب الإسلامية وعلى الخصوص عند فقد الوحي أو غياب المعصوم فإن الحاكم في تقرير المسائل الأسلم أن يرتبط بالشورى وممارستها.

## شبهات حول الديمقراطية:

واجهت الديمقراطية في بلاد المسلمين اعتراضات كثيرة وشكك الكثير في معارضتها للإسلام جملة وتفصيلاً، ولعل أهم هذه الشبهات هي:

١. إن الديمقراطية نشأت في بيئة غربية وثنية أو مسيحية ثم في الآخر جاءت من بيئة علمانية، فهي بدأت في البيئة الرومانية الوثنية ثم المسيحية ثم العلمانية ولا شك ان هذا سيؤثر في تأسيس فلسفة الديمقراطية وأصولها وتوجهاتها، والحقيقة ان هذا الانتقال يؤكد على أن الديمقراطية لا ترتبط بالعقائد الدينية فهي تعبر عن حالة من تطور

---

(١) القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص٦٧، وهي فرع من قاعدة أكبر وهي (المشقة تجلب التيسير).

الوعي الغربي فهي لا دين لها كما يقولون، والمسلمون كما هو معروف لديهم إن الإسلام يهدف إلى تحقيق المصالح ويدرء المفاسد كما هو ثابت في القاعدة الشرعية (إن الشريعة كلها مصالح أما جلب منفعة أو درء مفسدة وكلاهما يحقق المصلحة)[1]، وكذلك (إن الحكمة ضالة المؤمن انّا وجدها فهو أحق بها أو أخذها ولو من أهل النفاق)[2]، كل هذه المؤشرات تؤكد على أن الديمقراطية في جوهرها تحقق مصلحة المجتمع وتبعده عن الاستبداد وقمع الحريات، وهي من مبادىء الإسلام إذا سلمت من التطويع والتحريف في التطبيق.

٢. إن الديمقراطية تقرر مبدأ حكم الأغلبية وفي هذا الأمر مصادرة لحق الشرع في حكم المجتمع والهيمنة على توجهات الفكر ومقاصد الحياة، والحق ان الأغلبية إذا جردت من التأثير الخارجي فلاشك انها ستنحاز إلى الهوية الإسلامية وحتى وإن كانت غير معصومة فهل الأقلية معصومة؟ ولذلك لابد من الموازنة ووضع إطار من الضمانات لكي لا تتحول الأغلبية إلى أغلبية استبدادية، كما يدعو الفكر الماركسي ويؤمن

---

(١) وهذه القاعدة لها فروع منها (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)، ينظر: القواعد الفقهية، د. عبد الكريم زيدان: ص١٠٥ .

(٢) الحديث يروى عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، المفيد، مسند الإمام علي (عليه السلام)، الشبكة العنكبوتية .

بدكتاتورية البروليتاريا، ونعود ونؤكد بأن اختيار الإسلام لا يمكن أن يكون بالقوة أو بالإكراه.

٣. ومن المشكلات التي أثيرت على الديمقراطية هي ان حكم الأغلبية سيؤدي إلى تعارض مع الإسلام؛ لأن تعالى يقول: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ ﴾[1]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2]، والحقيقة ان في هذا الاعتراض وجاهه ولكن لو عدنا إلى أصول ومقاصد الإسلام نجد أن الإسلام يحكم حياة الناس باختيارهم فلو ان مجموعة من الناس اختارت اتجاهاً يخالف الإسلام فما هو السبيل لمواجهة هكذا احتمال؟

إن الإسلام يؤكد على ان الغاية الأساس من نزوله هو رحمة الناس وانقاذهم فليس من المعقول أن نفرض على الناس التعاليم بالقوة، وإنما يحمل الناس على الالتزام بالتدريج واقناع الناس وإعادتهم إلى رشدهم بالحكمة ودفعهم إلى تصحيح علمهم ومعرفتهم بالإسلام ثم بعد ذلك نأتي إلى التطبيق.

وفي حادثة إسلام النجاشي وقد كان ملكاً على الحبشة فإنه عندما أسلم في الخفاء ولم يعلن الرسول ﷺ إسلامه إلا بعد موته بعد أن صلى عليه

---

(١) سورة الأنعام: من الآية (١١٦).

(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٦).

صلاة الغائب، وكذلك المسلمون في الحبشة لم يلزموا النجاشي بتطبيق الإسلام وأن يحكم بالإسلام مع انه كان ملكاً مسلماً، ولكن الغالبية لم تكن على الإسلام، وكذلك الرسول ﷺ في مكة لم يحاول أن يطبق الإسلام على أهل مكة ولا غيرهم.

وفي هذه الأمثلة دلالة على مراعاة الأغلبية وعدم زج المجتمع في صراعات قد تؤدي إلى تدمير النسيج الاجتماعي ولن تحقق مقاصد وأهداف الدين)[1].

وعلى هذا الأساس استطاع الفكر الإسلامي أن يمد المجتمع الإسلامي بتأصيلات معتبرة منحت المسلمين القدرة على التعايش مع الواقع بدون الاصطدام بثوابت الإسلام والمحافظة على الهوية الإسلامية.

ومن الحركات التي واجهت العالم الإسلامي، وشكلت ضغطاً فكرياً استدعى تطوير الخطاب الإسلامي هي العلمانية.

## ثالثاً: العلمانية والحداثة.

١. العلمانية: وهي حركة فكرية غربية تدعو إلى عزل الدين عن السياسة، وانتقلت العلمانية إلى العالم الإسلامي في بداية القرن العشرين الميلادي، وهي حركة فكرية سياسية قامت على أنقاض الدين والفكر اللاهوتي المسيحي، وتعرفها دائرة المعارف البريطانية: هي حركة

---

[1] ينظر: الأمة هي الأصل، د. احمد الريسوني: ص٤٩ وما قبلها وما بعدها.

اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا، ومن التعريف نجد أن هدف العلمانية هو صرف الناس عن الإيمان بالغيب وبوجود قوى غيبية وإرادة صممت العالم لغاية غير مادية[1].

وانتشرت العلمانية بسبب تبني الكنيسة لمفاهيم أثبت البحث العلمي خطأها، وكذلك بسبب هيمنة الاستبداد الديني والعقائد المخالفة للعقل والمنطق العقلي، وبعد النهضة في أوربا وانهيار نظام الإقطاع والنبلاء واستغلال الفقراء، كل ذلك ساعد على انتشار العلمانية التي تدعو إلى تبني رؤية علمية عقلية لمسائل الحياة وما يشغل الإنسان في حياته، فقدمت العلمانية تفسيراً عقلياً مادياً، واستبعدت الإيمان بالروح والإيمان بالله وبوجوده، وساعد على انتشار العلمانية في العالم الإسلامي تخلف الفكر الموجه لعامة الناس الذين غلب عليهم الجهل والخرافة، وكذلك التفسير الخاطئ للدين وحقائق الدين، ويضاف إلى ذلك الاستبداد السياسي الذي مارسه الحكام في العالم الإسلامي، وتفشي الفقر والجهل والحرمان والطبقية كل ذلك أدى إلى ضعف الخطاب الإسلامي الذي كان يعيش وضعاً حرجاً مع غياب المعاصرة.

---

(١) ينظر: الفكر الإسلامي والتحديات المعاصرة، د. رعد الكيلاني: ص٢٩ .

وشكلت العلمانية تحدياً كبيراً للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، وحفزت الكثير من المفكرين للبحث عن جذور الهوية الإسلامية في الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٢. الحداثة والنزعة الإنسانية.

بعد عصر النهضة ظهرت في أوربا حركات إنسانية وفلسفات فكرية، ويحدد برتراندرسل أسباب النهضة في أوربا في أربع حركات كبرى وهي كما يؤشرها رسل كما يأتي:

١. النهضة الإيطالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد عاد الاهتمام بالثقافة الدنيوية، وظهر ذلك جلياً في جميع الفنون والعلوم، وكان يمثل خروجاً على التراث الكنسي السائد الذي كان يتبنى الإيمان بالغيب والعالم الأخروي الذي يمثل الخلاص.

٢. النزعة الإنسانية التي كانت ثاني العوامل الكبرى الجديدة المؤثرة في هذه الفترة، واقتصر تأثير النزعة الإنسانية على المفكرين والباحثين وظهر باحثون إنسانيون عظام.

٣. الإصلاح الديني الذي قام به لوثر وهو العامل الثالث من بين العوامل الكبرى التي ازالت عالم العصور الوسطى.

٤. إحياء الدراسات التجريبية وهو الذي حفز على التطور العلمي، وكان أهمها إعادة اكتشاف نظام مركزية الشمس على يد

كوبرنيكس[1]، لقد كان الهدف الأساس للنهضة الأوربية هو تحرير الإنسان من الخرافة، وبذلك جعلت الفلسفة الغربية الإنسان سيد الموقف وهو أعلى قيمة في سلم الوجود، وإن العلم الحديث أعطاه قوة بلا حدود وبذلك تداعت الأنظمة السياسية القديمة التي أعطت لمجموعة من العوائل الأوربية والسلالات المالكة قيمة مقدسة فوق المسائلة، وبعد انهيار النظام السباسي تأسست النظم السياسية الحديثة، وكانت الديمقراطية هي نموذجها المثالي وتعني أن الحكم يمارسه الشعب والسلطة هي بيد الشعب، ولا توجد سلطة أعلى من سلطة الشعب، وكان الفكر الأيديولوجي لهذه النظرية هو العلمانية والعلوم الحديثة والمكتشفات والنظريات العلمية.

ويذكر رسل بأن الإنسان أصبح يحتل المكانة الرئيسة على المسرح، وحاولت الكنيسة تطويق انتشار البدع الجديدة ولكن دون نجاح كبير، واستطاعت محاكم التفتيش عام ١٦٠٠م أن تدين جورداتو برونو وتحكم عليه بالموت حرقاً.. غير ان هذا الحكم كشف عن مدى ضعف الموقف الذي كان من المفترض انه يدعمه، وفي الميدان السياسي بدأت مفاهيم

(١) ينظر: حكمة الغرب، برتراندرسل، ترجمة فؤاد زكريا، ج٢، سلسلة عالم المعرفة: ص١٧ وما بعدها.

جديدة للسلطة تتطور تدريجياً، وأخذ يضيق بالتدريج نطاق سلطة الحكام الوراثيين)[1].

وهكذا تم تطور المفاهيم في الغرب بصورة متوازية ولم يكن تطوراً فجائياً إنما كان هناك تطور في ميادين الحياة المختلفة في الأدب والفن والعلوم والدين، ومن هنا نشأت الحداثة وهي حركة تتبنى كل جديد من أجل إشباع حاجات الإنسان، فالنزعة الإنسانية هي ثمرة الفكر الحداثي والديمقراطية هي ثمرة الفكر الفلسفي العلماني، فالعلمانية هي صنو الحداثة وهي شقيقتها، واستطاع الغرب أن يحقق عن طريق العلمانية والحداثة نظاماً سياسياً واجتماعياً أكثر إقناعاً للمنطق العقلي والرؤية العلمية الجديدة، وهذا الأمر أثر في الفكر الإسلامي وتصور بعض المفكرين ان ما أنجزه الغرب يعود إلى الفلسفة الجديدة التي تبناها والتي أعلت من قيمة الإنسان أو ما يسمى بالنزعة العلمانية، وإن التطور مقترن بالعلمانية والحداثة والديمقراطية وهو أمر فيه الكثير من الجهل بطبيعة حركة التاريخ وتهيمن عليه الرؤية النسبية التي لا تدرك السنن الإلهية التي خلق الله الكون بموجبها.

من هنا فإن الفكر الإسلامي واجه حالة من التحدي الكبير فهو مطالب بإثبات صواب المنهج القرآني، وكذلك مطالب بإبطال الشبهات التي أثارها الفكر الغربي. وأهم واجب مطالب به الفكر الاسلامي

---

[1] حكمة الغرب / م. س: ص٢٤ .

المعاصر هو بناء مشروع حضاري يتسلح بالعلم والمعرفة والتطور وينهض بالامة، ويحقق لها استقراراً امنياً واجتماعياً ويبني اقتصاداً حراً مستقلاً وتطوراً علمياً ينافس العالم الغربي الذي يعاني من مشاكل مزمنة وخطيرة.

## رابعاً: حقوق الإنسان وحرية المعتقد.

ظهر مصطلح حقوق الإنسان مع التيارات الفكرية والفلسفة الغربية الحديثة ووضع فلاسفة الغرب عدة لوائح تتضمن الحقوق الأساسية للإنسان، وكان من أهمها وأقدمها الميثاق الأعظم في بريطانيا سنة ١٢١٥م، وكانت هذه اللوائح هي الدستور الذي يعبر عن الفلسفة الغربية في نظرتها للإنسان ودوره في الحياة، ثم تأسس على أثر الحركة الفكرية الإنسانية ولوائح حقوق الإنسان مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة وللحق ان فلاسفة الإسلام أو أن الإسلام نفسه كان قد اهتم وأعطى قيمة عظيمة للإنسان وحياته على الأرض وكل ذلك يؤكد على ان الإنسان كائن متفرد في وجوده على الأرض فإن البشرية بحاجة إلى قيم وأخلاق أكثر من حاجتها إلى الإهتمام بالجانب الجسدي أو الفيزيولوجي (والدين الإسلامي المقدس كان ولا يزال يملك هذه الميزة وهي الاهتمام بالحقوق والأخلاق معاً، ويقول هربرت سبنسر: من أجل

أن يكون للعدالة وجود خارجي يجب على الأفراد أن يحترموا الحقوق والامتيازات الطبيعية)[1].

وهذا يعني أن لائحة حقوق الإنسان لم تكن تعني في حقيقتها غير فرضية الحقوق الطبيعية والفطرية التي وهبها الخالق للإنسان وكمنت في فطرته ووعيه، ولو تأملنا مقاصد الشريعة الإسلامية لوجدنا ان الضروريات الخمسة وضعت حقوق الإنسان أساساً لها وهي الحقوق الأساسية الخمسة التي شرعت التعاليم لرعايتها وتحقيقها وصيانتها وهي:

١. حق الدين: وشرع لرعايته والدفاع عنه الجهاد بالنفس والمال وكل ما يملك الإنسان لحماية الدين ونشره بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة أو بالجهاد لرفع قوى الكفر التي تمنع الناس وتصدهم عن الإيمان.

٢. حق النفس أو الحياة: وشرع لرعايتها حرمة قتل النفس.

٣. حق المال أو التملك: وشرع لحمايته حرمة السرقة.

٤. حق العقل أو الحرية الفكرية: وشرع لحمايته التفكر وحرية الاختيار وحرم العنف والإكراه لتغيير القناعة.

٥. حق النسل: وشرع لرعايته وصيانته الزواج وقوانين رعاية الجنين والتربية والكثير من التشريعات.

---

[1] نظام حقوق المرأة في الإسلام، مرتضى مطهري: ص١٤٤.

وبناء على ذلك فإن حقوق الإنسان في نظر الدين الإسلامي هي هبة إلهية وهي لا تكتسب ولا تورث وهي مرتبطة بوجود الإنسان وحق انتمائه الإنساني ولعلم أهم الحقوق التي اتفق فيها الإسلام مع الأديان والشرائع الأخرى هي:

١. حق المساواة: فكل الناس سواسية ولا فرق بين جنس وآخر أو لون وآخر أو عرق وآخر، ولا فضل لقومية على أخرى والناس تتفاضل بالعمل والإيمان والقيمة الإنسانية.

٢. حق الحرية: فالإنسان يولد حراً ولا سبيل إلى استعباده من قبل أي قوة في الأرض وهذه الحرية لابد أن يكفلها الشرع والقانون.

٣. حق الحياة: وهو حق وهبة الله للإنسان فلا يحق لأي قوة أن تسلب هذا الحق من الإنسان أو الاعتداء عليه إلا بأسباب ومبررات شرعية وقانونية.

وقد تضمنت لوائح حقوق الإنسان والوثائق التي تم تشريعها في الغرب، هذه الحقوق التي تعبر عن جوهر حرية الإنسان وقيمته الإنسانية وكرامته وهو أمر اتفق مع مقاصد وغايات الشريعة الإسلامية.

ولعل أهم هذه الحقوق هو حق الحرية الذي يشمل حرية الفكر والمعتقد وان الإنسان حر في اختيار معتقده وقناعته الفكرية، وهي مسألة أكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ